الدكتور علي الوردي

شخصية الفرد العراقي

بحث في نفسية الشعب العراقي على ضوء علم الاجتماع الحديث

AXIELL
BOOK-IT
800 26 58 8257 87



المكتبة العربية الشرقية

أورينتاليا

INTERNATIONELLA BIBLIOTEKET

Surbrunnsgatan 13
114 21 Stockholm
Tel. 08-612 04 35

Oaa=sg

al-WARDI
Shakhsiyat al-fard al-iraqi

شخصية الفرد العراقي

الدكتور علي الوردي

أستاذ متمرس

جامعة بغداد

شخصية الفرد العراقي

بحث في نفسية الشعب العراقي على ضوء علم الاجتماع الحديث

- الدكتور علي الوردي
- شخصية الفرد العراقي
- الطبعة الثانية 2001
- منشورات دار ليلى – لندن
- الطبعة الأولى من هذا الكتاب – بغداد 1951

تمهيد

لست أدعي بأن هذه المحاضرة بحث قد استوفى شروطه العلمية.

وربما صح القول: بأنها أشبه بالمقالة الأدبية منها بالبحث العلمي.

وعذري في ذلك: إنها محاضرة كتبت لكي تلقى في حفل عام، ولم يكن الغرض منها أول الأمر أن تطبع أو تنشر على القراء بهذا الشكل الحاضر.

إنها قد كتبت إذن على أساس الاسترسال الفكري وتداعي الخواطر. فهي لا تحتوي على فصول منظمة أو حلقات متتابعة كل حلقة تؤدي ما يليها، على حسب ما يستوجبه التسلسل المنطقي.

وربما تاه القارئ في طيات ما فيها من أفكار شتى لا يجمعها نظام موحد.

وعلى أي حال، فأن القارئ قد يستبين، بعد انتهائه من قراءة المحاضرة، بأنها تنقسم إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأول منها أريد به بحث الشخصية البشرية بوجه عام؛

أما القسم الثاني فقد اختص ببحث (شخصية الفرد العراقي).

ولسوف يجد القارئ أن القسم الأول منها مطول وقد لا يخلو من خروج عن الموضوع. أن هذا أمر لا اعتذر عنه ولعلي قصدته قصداً وعزمت عليه. فقد رأيت إنني غير قادر على دراسة الشخصية العراقية ما لم أدرس، قبل ذلك، الشخصية البشرية بشيء كثير من التفصيل. وإضافة إلى ذلك: فان موضوع الشخصية بوجه عام لم يبحث في اللغة العربية بحثاً وافياً. فان اغلب من بحثوا فيه أو ترجموا عنه كانوا من المختصين بعلم النفس. ومعنى هذا أن الشخصية لم تبحث إلا من ناحيتها الفردية حيث لم يعن بالناحية الاجتماعية فيها إلا قليلاً.

هذا وينبغي أن لا ننسى بان للشخصية مفهوماً في علم النفس يختلف عن مفهومها في علم الاجتماع أو علم الحضارة. فعلم النفس ينظر إلى الإنسان كفرد قائم بذاته، ولذا فهو يدرس شخصية الإنسان من حيث كونها مجموعة الصفات الخاصة التي تميز أي فرد عن الآخر. وهذا مفهوم لا يخلو من صواب، ولكن علماء الاجتماع يضيفون إلى ذلك بان الشخصية، في كثير من وجوهها، ممثلة للمجتمع؛ وهم اليوم يكادون يجمعوا على الفرد والمجتمع ما هما إلا وجهين لحقيقة واحدة، أو كما قال (كولي): أن الفرد والمجتمع توأمان يولدن معاً.

فشخصية الإنسان إذن تسبك في قوالب يصنعها المجتمع. ولذا نرى أبناء المجتمع الواحد متشابهين في كثير من صفاتهم الشخصية. انهم يتفاوتون عادة، في بعض دقائق الصفات العامة، تفاوتاً يجعل لكل فرد منهم شخصيته الخاصة به. ولكنهم رغم ذلك يتشابهون في الخطوط الرئيسية لتلك الصفات.

لعلني استطعت، في القسم الأول من المحاضرة، أن اعرض على القارئ هذه الناحية من الشخصية، وان أظهر كيف أن الفرد ما هو في حقيقته إلا صنيعة من صنائع المجتمع الذي يعيش فيه. لقد أهملت في هذا القسم، إذن، الناحية الفردية من الشخصية، وركزت انتباهي على الناحية الاجتماعية. ولا أعني بأني قد أصبت في ذلك كل الإصابة. إنما قصدت أن ألفت نظر القارئ العربي إلى ناحية لم يكن يلفت إليها من قبل التفاتاً كافياً.

وعند انتقالي إلى دراسة شخصية الفرد العراقي جابهتني صعوبة كبرى، وهي اكتشاف ما في المجتمع العراقي من خصائص ومميزات تجعله ينتج في أبنائه نموذجاً معيناً من الشخصية لا يشاركه فيه أبناء المجتمعات الأخرى.
لقد حاول كثير من الباحثين ، عراقيين وأجانب، أن يكتشفوا خصائص هذا المجتمع ، وقد جاء كل منهم برأي في هذا السبيل يخالف ما جاء به الآخرون.

لقد حاولوا ، كالأطباء، أن يكتشـــفوا داء هــذا المريــض ، ولكنهم، مع الآسف، لم يكونــوا متفقيــن علــى الطريقــة التــي يفحصون بها أعراض الداء. لقد كــانوا أدبــاء أو مؤرخيــن أو سواحاً أو مستشرقين، لكن قليلا منهم من حاول أن يدرس الــداء على ضوء علم النفس أو علم الاجتماع أو علم الحضــارة. لقــد كانوا كمثل من يحاول فحص مريض وهو لا يعرف مـــن علــم الطب شيئاً.

أن هذه المحاضرة، رغم ما فيها من نقص بارز في الناحيــة العلمية، هي محاولة مفردة في سبيل فحص المجتمـــع العراقــي وكيف تنمو فيه شخصية الفرد على ضوء علم الاجتماع الحديـث. ولقد كابدت في سبيل إعدادها آلاما لا يستهان بها، إذ لم أجد فــي طريقي الذي حاولت السير فيه علامة ترشدني وكأني بذلك أشــق طريقاً جديداً لم تطأه قدم من قبل.

إنها على كل حال، محاولة مبدأية أهيب بالقارئ أن يتشـــدد في نقدها وفي النظر إليها نظرة الشاك المستريب، وربمــا كنــت غير مغال إذا قلت بأنها أول محاول في هذا السبيل علـــى هــذه الشاكلة.

ولست اعني بهذا إنها محاولة قيمة بالقبول من الوجهة العلميـــــة. فمشكلة الإنسان انه لا يستطيع أن يصل إلى الصواب رأساً؛ ومن الممكن القول: بان الخطأ طريق الصواب. والـــذي اقصـــده إذن من هذه المحاولة هو تحفيز غيري على دراسة هـــذا الموضـــوع الهام وإثارة بعض مفكرينا لكي ينزلوا قليلاً من أبراجهم العاجيـــة فيتغلغلوا في المجتمع العراقي باحثين منقبين، حيث لا يســـتنكفون من ملامسة ادرانه ولا يستحقرون ما فيه من سفه أو تسفل.

علي حسين الوردي

سيداتي سادتي:

يجدر بنا قبل أن ندرس شخصية الفرد العراقي أن ندرس مفهوم الشخصية بوجه عام. فللشخصية مفهوم لدى العامة يختلف عن مفهومها لدى العلماء فقد تعود الناس خطأ أن يقولوا عن أحدهم بان له شخصية وان آخر انه لا شخصية له. كأن الشخصية في عرفهم كالجمال مثلا موجود عند بعض الناس ومفقود لدى الآخرين.

الواقع أن كل منا له شخصيته الخاصة به. ولا يخلو أحد منا من شخصية. إنما الفرق بين بعض الناس وبعضهم الآخر هو في قوة الشخصية وضعفها وليس في وجودها وعدمها.

وإننا في هذا المساء لا نقصد أن نبحث في موضوع الشخصية من حيث قوتها أو ضعفها، فهذا أمر لعلنا نخصص له يوما آخر نبحثه فيه. أن بحثنا يدور الآن عن ماهية الشخصية بصورة عامة وعن خصائص الشخصية بصورة خاصة.

وقد يسأل أحدكم فيقول: ما هو هذا الشيء الذي نسميه بالشخصية، وإذا كان كل منا له شخصيته الخاصة به فأين هي إذن يا ترى؟

KMH

وما هو مصدرها ومنشؤها وكيف نستطيع أن نتحسس بها في أنفسنا وندرك إنها موجودة فينا حقا؟

سألني مرة أحد أصدقائي وهو يهمس في أذني كأنه كان يخشى أن يسمعها أحد: ((ويحكى يا أخي: إني اسمع كثيرا عن الشخصية والتظاهر غالبا بأني أفهمها خوفا من الفضيحة ولكني في الواقع لا افهم عنها شيئا فهل لك أن تعطيني بعض الفكرة عنها حتى أستطيع أن أخوض مع الناس إذا جاء البحث فيها أو أدلى دلوى في الإدلاء عنها)).

سيداتي سادتي، وجه إلي الصديق هذا السؤال في وقت لم اكن أنا اعرف عن الشخصية اكثر مما يعرف، وقد حاولت على كل حال أن اقدم له بعض التعاريف المألوفة في الشخصية، فلم يفهمني أو بالأحرى لم اكن أنا افهم ما كنت أقول، وبقينا ساعة من الزمن نتجادل من غير جدوى حتى انتهى الأمر بي إلى أن اعترف له بجهلي المطبق في هذا الموضوع ثم نمت مستريحا.

هذه القصة تعطينا صورة مصغرة لما عليه اغلب متقفينا وطلابنا من جهل في موضوع الشخصية، وأرجو أن أوفق الأمر في بحث موضوع الشخصية معكم بصورة أوضح مما وفقت بها آنذاك مع الصديق العزيز.

ليس من السهل علينا أن نحدد الشخصية أو نعرفها تعريفا جامعا مانعا فهي كالكهرباء أو الأثير أو المغناطيس لا تعرف إلا بآثارها(1).

ومن الصعب تحليل الشخصية إلى عناصرها الأولية، فهي إذا حللت وفصلت عناصرها بعضها عن بعض فقدت ارتباطها العضوي وقيمتها الكلية، إنها إذن كالمركب الكيماوي يحتوي على صفات خاصة به تختلف عن صفات العناصر المكونة له كل الاختلاف.

وعلى كل حال يمكن تعريف الشخصية بإيجاز فيقال بأنها: ((المجموعة المنظمة من الأفكار والسجايا والميول والعادات التي يتميز بها شخص ما عن غيره))(2).

يقول (مورى) و (كلوكهوهن) أن الشخصية البشرية تكوين حركي ومحاولة مستمرة في سبيل التوفيق بين رغبات الإنسان الطبيعية وقواعد المجتمع المفروضة عليه(3).

سيداتي سادتي:

أن الإنسان ولد وقد ورث ميولا أو اندفاعات بهيمية غير مهذبة. فتوضع هذه الاندفاعات العارمة تحت تأثير القيم الحضارية والقيود الاجتماعية حيث يبدأ الطفل ساعيا في سبيل التوفيق بين ما يشتهي من حاجات آنية وما يفرضه عليه المجتمع من إصلاحات واعتبارات وقيم.

---

(1) انظر محمد عطية الابراشي، الشخصية: ص: 9.

(2) انظر K. Young , Personality ..., p. 3.

(3) Kluckhohn & Murray , Personality .., p. 27

إنها صراع متواصل بين قوتين متعاكستين: قوة بهيمة لا تفهم قيـدا ولا تدرك معنى وقوة أخرى اجتماعية تحاول أن تسيطر على تلـــك القـــوة الغاشمة وتسبكها في قوالب حضارية مقبولة. أن الشخصية كما يقــول فرويد: نزاع بين ذاتين: بين الذات السفلى والذات العليا. فمن النـــاس من ينجح في المصالحة والتوفيق بين هـــاتين القوتيــن المتنـــازعتين فيصبح إذن شخصا سويا ومنهم من يفشل فيصبح مجنونا أو مجرما أو منطويا على نفسه أو مستهترا أو معتديا حقودا.

ومن الملاحظ أن رجال الدين ورجال الفكر قديما أحســوا بـــهذه الحقيقة واعتبروا النفس الإنسانية ميدانا لنزاع مريـــر بيـــن هـــدى الله ونزغات الشيطان، أو كما قال الفلاسفة بين وحــــي العقــل واندفـــاع العاطفة. أجل لقد أدرك القدماء هذه الحقيقة بشأن الشخصية ولكنــــهم فشلوا رغم ذلك في دراسة الشخصية دراسة واقعية. فقد كان دأبـــــهم الموعظة والإرشاد وان ينصحوا الإنسان بان يكون عاقلا أو خيرا مــن غير أن يقفوا لحظة يبحثون فيها عن السبب الذي جعـــل كثـيرا مــن الناس منجرفين مع تيار العاطفة متنكبين عن طريق العقل، أو بعبـــارة أخرى ((متبعين لأوامر الشيطان تاركين أوامر الرحمن)).

يحكى أن أعرابياً مر ذات يوم بمكتبة مملوءة بالكتب فهتف قائلا إنـــي اعرف جميع ما في هذه المكتبة وخلاصة ما فيها: ((يا أيـــها الإنســـان كن خيراً !))، أو كما نطق هو بلهجته الأعرابية: ((يا ابـــن آدم صـــير خوش ادمي)).

أن كلمة هذا الأعرابي، والحق يقال، تنطبق كل الانطباق على ما كان القدماء يكتبون فيه ويخطبون. لقد أخفقوا حقاً في العثور على الحقيقة الكبرى فيما يخص الشخصية البشرية وهي أن أوامر الله ما هي في حقيقتها إلا أوامر المجتمع وتقاليده ومثله العليا، وان هذه التقاليد والمثل لا يكاد يضعف سلطانها في النفس الإنسانية حتى نرى الإنسان ينجرف وراء شهواته البهيمية قدما لا يلوي على شيء. فالمشكلة إذن ليست هي مشكلة نزاع بين العقل والعاطفة كما كان القدماء يعتقدون. إنما هي في الواقع مشكلة التكتل والتفكك في النظام الاجتماعي الذي يعيش فيه الإنسان. فإذا تفكك المجتمع نتيجة تحركه واتصاله بغيره من المجتمعات الأخرى ضعف سلطان المثل العليا الخاصة به وقل لذلك إيمان الأفراد بها فانساقوا إذن وراء ما يشتهون رغم الخطب والمواعظ.

لقد كان القدماء بالإضافة إلى ذلك يعتقدون بأن الإنسان مخير فيما يعمل كل الخيار، أي: انه يستطيع أن يركب شخصية ويصنعها كما يشاء أو أن يصبها بالقالب الذي يريد، فهو قادر على زعمهم أن يجمع في نفسه جميع الخصال الحسنة وينفي عنها جميع الخصال السيئة كأن الشخصية قطعة من الشمع يكيفها الإنسان حسب ما يريد، غير دارين بأن الشخصية تنشأ وتتنوع وتنضج حسب قواعد يصعب المحيد عنها، وإنها قد تسير في الطريق المرسوم لها حسب تفاعل الطبيعة والمجتمع سواء اخطب الواعظون أم لم يخطبوا أو نصح

المفكرون أم لم ينصحوا.

أن استقامة الشخصية لا تقاس بالمقاييس المنطقية المطلقة التي كان يتخيلها الحكماء. إنها بالأحرى نسبية، فإذا ربى الإنسان في مجتمع معين واقتبس منه قيمه وتقاليده فمن السخف أن نطلب منه الإصغاء إلى نصائح الحكماء التي تخالف ما تعود عليه.

أن من دواعي الفخار لنا حقاً أن نجد أن الحضارة الإسلامية قد أنتجت مفكراً يختلف في هذا الصدد عن غيره من القدماء، هو المفكر العربي المشهور عبد الرحمن بن خلدون. فقد حاول هذا المفكر أن يدرس شخصية الإنسان، لا على أساس الموعظة والإرشاد كدأب الناس قبله، بل على أساس الحقيقة الراهنة التي لا محيص عنها.

وجد ابن خلدون أن البدو كانوا موسومين في ذلك العهد بالتخريب وبالنفرة من العلم والصناعة، فقام مدافعاً عنهم بأسلوب يقرب من أسلوب علماء الاجتماع الحديث؛ يقول ابن خلدون: أن البدوى بطل شجاع وفاتح باسل وهو أبيّ للضيم وحامي للجار، ومثل هذه الصفات لا تتلاءم هي وصفات طلب العلم أو الصبر على الصناعة وفنون العمران.

وفي رأيه أن الشخصية الإنسانية على أنماط شتى فان هي كانت من نمط معين صعب عليها أن تكون من النمط الآخر. وعلى هذا استنتج ابن خلدون أن طلب العلم والبراعة الصناعية صفة الأمة المغلوبة الخانعة ذلك لأنها صفة تستدعي الخضوع والصبر والعمل الكادح

وهذه مزايا لا تتفق مع مزايا الأباء والبطولة والنجدة التي اتصف بـــها البدوي. فالإنسان في نظر ابن خلدون لا يستطيع أن يكــون محاربــا باسلا وطالبا للعلم في نفس الوقت، وكذلك لا يقدر أن يكون بطلا أبيــا وصانعا ماهرا في آن واحد (4).

وكذلك اثبت ابن خلدون بان العلــوم والفنــون لا تنشــأ إلا فــي المجتمع المتفكك الذي ينشأ فيه بنفس الوقت الميل إلى الإجرام والسـفه والخلاعة. فهو يرى بان المجتمع البدوى الخالي من العلم والصناعـــة خال أيضا من مقتضيات التفسخ الشخصي وأسباب الرذيلة. فـالبدوي، في نظرة، اسلم فطرة واقرب إلى روح التدين والفضيلة من المدنـــي. وكأن مجتمع المدينة الذي يشجع النبغاء وأصحـاب الفنـون والعلـوم يشجع أيضا أصحاب الجريمة والتهتك وسوء الأخلاق(5).

---

(4) أن الاستنتاج الذي جاء به ابن خلدون يمكن تطبيقه على الحضارة التي كانت سائدة في عصر ابن خلدون حيث كان من الممكن تصنيف الناس إلى صنفيـن متعاكسـين: غـالب ومغلوب، صاحب سيف وصاحب مهنة، أو كما قال (فبلن): غازى ومنتج أما اليوم، فقـد اصبح هذا التصنيف غير ممكن التطبيق بالنسبة للحضارة الغربية الراهنة، إذ أن السـيف والمهنة قد اتحدا أو بعبارة أخرى اصبح الغلب والإنتاج مترادفين، ولا يمكـن للامـة أن تكون غالبة في المعترك الدولي إلا إذا كانت متفوقة في الميدان الصناعي والعلمي، وهـذا عكس ما كان يجرى في العصور القديمة والوسطى، لان صاحب السيف كـان يـأبى أن يكون صانعا أو عالما وقد كان يسمى الصناعة (مهنة) أي شيئا ممتهنا ومحتقرا (انظر ابن خلدون، المقدمة، ص: 544) .

(5) انظر ابن خلدون، المقدمة، ص: 121 وغيرها.

سيداتي سادتي :

أن هذه النظرية ، رغم ضعفها الظاهر بالنسبة للحضارة الحديثة تحتوى على دقة نظر في موضوع الشخصية بالنسبة للحضارة القديمة وهى تعتبر ضربة قوية ضد التفكير القديم الذي كان يرى الإنسان قادرا على تكوين شخصية كما يهوى ويجمع فيها من الفضائل ما يشاء .

كانت نظريةابن خلدون هذه كالومضة الخاطفة تبزغ في حلك الظلام ثم تنطفى سريعا، حيث كانت سابقة لأوانها بعدة قرون وما كاد صاحبها يموت حتي نسى العالم موضوع الشخصية كما نسى اسم ابن خلدون؛ وقد ظل المفكرون بعد ابن خلدون كما كانوا قبلة قابعين في أبراجهم العاجية وقد بحت أصواتهم من خطب الوعظ ومؤلفات الإرشاد.

ولم يلتفت العالم إلى موضوع الشخصية من جديد إلا في عصر النهضة الأوربية. إذ قد حصل إذ ذاك رد فعل شديد ضد التفكير القديم وضد مصطلحات القرون الوسطى جميعا. فبعد ما كان القدماء مثلاً يرون بأن الإنسان حر في صنع شخصيته، اصبح مفكرو النهضة يرون الشخصية كالآلة الميكانيكية التي لا إرادة فيها ولا حرية لها. إذ هي في نظرهم أداة طيعة بيد أخلاط البدن الأربعة: أي الدم والبلغم والصفراء والسوداء(6).

---

(6) انظر W.E.Sargent. Teach yourself psychology , p.9

فإذا زاد أحد هذه الأخلاط عن حده في البـــدن أصبحـت الشــخصية مطبوعة بطابع ذلك الخيط الزائد. فالشخصية الصفراوية في نظرهــم معاندة سريعة الغضب قوية الإرادة، بينما الشخصية البلغميـــة هادئـة يغلب عليها الكسل وقلة الاكتراث. أمـــا الشـــخصية الدمويـــة فــهي منبسطة ومتفائلة واثقة بنفسها بعكس الشخصية السودائية الذي يغلـــب عليها الوسواس والحزن والانكماش عن الناس(7).

لا نكران بأن نظرية الأخلاط هذه لم تبتكر في عصر النهضـــة، فهي بالأحرى كانت معروفة منذ أيام الإغريق القدماء، ولكنها كـــانت مستعملة في المجال الطبي وحده. فـــاخذ مفكـــرو عصـــر النهضـــة يطبقونها في المجال الاجتماعي أيضا. وينبغي أن نذكر: إنها اليــوم لا تؤخذ بعين الاعتبار في الدوائر العلمية إذ تعتبر إنـــها مســتندة علـــى أساس مغلوط. ولكنها مع ذلك كانت ذات أهمية كبيرة فـــي حينـــها إذ هي وجهت الأنظار في موضوع الشخصية نحو ناحية كان القدماء قــد غفلوا عنها وهي ناحية تصنيف الشخصية على أساس واقعـــي غـــير متأثر بالوعظ أو بالدعوة للمثل العليا.

وفي منتصف القرن التاسع عشر ظهرت للوجود قضيـــة الغـــدد الصماء. وهذه النظرية تشبه في ظاهرها نظريـــة الأخـــلاط القديمـــة ولكنها تستند في أساسها على بحوث علمية لا تقبل الشك. وعلـــى أي حال فقد تطرف بعض العلماء في تبيان اثر الغدد في تكوين الشخصية

(7) انظر الدكتور محمود حب الله، الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية، ص:35 وبعدها.

وتحمسوا لها بحين أصبحت الغدد الصماء تسمى بناء على ذلك ((غـــدد الشخصية))(8).

ولقد مر على العلماء عهد كانوا فيه لا يكـــــادون يلاحظـــون ظـــاهرة شخصية في أحد الناس حتى يسرعوا إلى تفسيرها بزيادة إفـــراز فـــي إحدى الغدد الصماء أو نقصه. فإذا رأوا، على سبيل المثال، شـــخصا ذكيا ونشيطا عزوا ذلك إلى زيادة في الغدة النخاميـــة الموجـــودة فـــي اسفل المخ؛ وإذا رأوا امرأة مسترجلة تحب تقليد الرجال في ملابســـها أو أعمالها أو ميولها الجنسية قالوا بأن ذلك راجع إلى زيادة في إفـــراز لحاء غدة الادرنالين الواقعة فوق الكليتين؛ وإذا شاهدوا شخصا ســـريع الغضب متحفزا للقتال في اكثر الأحيان نسبوه إلى زيادة الإفراز فـــي قلب الغدة الادرنالية؛ وإذا سمعوا عن رجل انه شبق شديد الشهوة قالوا انه ضحية التضخم في الغدة التناسلية، وكذلـــك إذا رأوا رجـــلا دائـــم التهيج والانفعال عزوا ذلك إلى نقص في الغدد الصغيرة الواقعة تحـــت الغدة الدرقية. أما الغدة الدرقية فيسبب نقصها فـــي زعمـــهم الخمـــول والكسل وضعف الحيوية، إلى غير ذلك من أقاويل(9).

أن هذا الاتجاه في تفسير الفروق الشخصية على أســـاس الغـــدد الصماء غلو أصبح علماء النفس الاجتماعي لا يستسيغونه.

---

(8) انظر دكتور صبري جرجيس، مشكلة السلوك السيكوباثي ص196.

(9) انظر روبرت ودروث، علم النفس، (ترجمة عبد الحميد كاظم)، ص218 وبعدها

فلا نكران لديهم أن للعوامل البيولوجية من غدد وغيرها دوراً كبيراً في تكوين الشخصية البشرية ولكنه ليس بالدور الحاسم. لا ن هذه العوامل البيولوجية كثيرا ما تتفاعل مع عوامل المحيط الاجتماعي وتتنوع بأنواعه. فكثيرا ما نجد شخصا قد ورث في تكوينه البيولوجي عوامع تدعوه إلى الغضب وسرعة الإعثاء مثلا ولكنه ولد في جماعة لا تحبذ هذه الصفة فيه ولذا تراه قد حول طبيعته البيولوجية إلى مجرى آخر غير مجرى الاعتداء والأذى، وقد يصبح بتأثير بيئته الاجتماعية خانعا بكاءا يحب أن يؤذيه الغير بدلا من أن يؤذى هو الغير. وكذلك قد تجد شخصا قد ملك ذكاءا مفرطا وهو عائش في مجتمع لا يقدر الذكاء إنما يقدر الضخامة البدنية وشدة البأس، ولهذا فهو قد يصبح خاملا لا ينتج علما ولا يفكر بفلسفه، إنما ينزوى عن الناس وينذب حظه.

وقد يصاب أحد الناس بالصرع أو بنوع خفيف من الجنون فيكون في بعض المجتمعات قديسا وفي البعض الآخر محجورا عليه في مستشفى الأمراض النفسية (10).

إننا هنا نستطيع أن نشبه العوامل البيولوجية بالمواد الخام والعوامل الاجتماعية بالمعامل التي تصنع من هذه المواد الخام بضائع شتى؛ فشخصية كل بضاعة إذن ليست نتيجة المواد الخام وحدها ولا نتيجة نوع المعمل فقط،

---

(10) انظر R.linton The Study of Man, ch. 31

KMH

إنها بالأحرى نتيجة كلا العاملين بعد تفاعلها قليلا أو كثيرا.

يذكر (موتران) على سبيل المثال: أن نقص إفراز الفص الأمامي من الغدة النخامية يؤدي بالشخص إلى أن يكون قزماً، ومن الملاحظ أحيانا أن الأقزام يميلون إلى حسن الهندام والتباهي وحب الفتنة؛ هذا ولكن ليس من الصواب أن يقال: بان نقص الإفراز في الغدة النخامية هو السبب المباشر في التباهي وحب الفتنة، إنما الأصح أن يقال: بأن تأثير البيئة الاجتماعية على خلق القزم هو الذي أدي به إلى ذلك، ولو انه نشأ في بيئة اكثر عطفا لكان الأرجح أن يكون على خلق آخر(11).

وعلى كل حال، لقد اختلفت العلماء حينا من الدهر في مسألة أيهما أهم في تكوين الشخصية البشرية:

الوراثة أم المحيط، أو بعبارة أخرى: العوامل البيولوجية أم العوامل الاجتماعية.

لقد مال العلماء أول الأمر نحو التأكيد على العوامل البيولوجية، أما اليوم فقد اصبحوا يعيرون اهتماما كبيرا للعوامل الاجتماعية، ويعتبرون الشخصية، كما ذكرنا آنفا، نتيجة للتفاعل المستمر بين الدوافع الطبيعية العارمة في الإنسان من ناحية والقواعد التي يفرضها المجتمع عليه من ناحية أخرى.

ولا تظنوا أيها السادة أن سر الشخصية قد اكتشف نهائيا أو أن العلماء قد توصلوا بالضبط إلى اكتناه العوامل التي تؤثر فيها.

Mottran, The Physicul Basis of Personality, p 57 (11)

فلا يزال جزء كبير من الشخصية غامضا. يقول تيرل في كتابه (شخصية الإنسان) أن هناك في أعماق النفس البشرية قوى خارقة مبدعة تتحدى نطاق الزمان والمكان ولا يمكن تفسير كنهها بما نعلم اليوم من قوانين الطبيعة.

يقول تيرل: انظر إلى الراقصة البارعة عندما تقوم بحركاتها المتناسقة المتلاحقة حيث تقوم كل عضلة بحركة متقنة في وقت معين لا تعارض به حركات العضلات الأخرى، ولا تزيد في جهدها الذي تبذله عن مقدار معين كافة للمساهمة بحركات الرقص على شكل بديع وإذا سألت الراقصة: كيف تقوم بهذا العمل المدهش أجابتك إنها هي نفسها لا تدري، إنها قد مارست الرقص وتعودت عليه ثم أطلقت بعد ذلك لتلك القوة الخفية في نفسها العنان (12).

وقل مثل هذا عن الشاعر أو المخترع أو النبي أو الموسيقي أو العالم. فكل واحد من هؤلاء وغيرهم تنبعث من أعماق نفسه قوى لا يعرف مأتاها تماماً فتسيره من حيث يدري أو لا يدري. كيف نستطيع أن نفسر مثلا سيمفونيات (بتهوفن) أو نظريات (نيوتن) أو اختراعات (اديسون) أو روايات (شكسبير).

هل كانت هذه الروائع الخالدة نتيجة لحسابات دقيقة أو عوامل معينة أو جهود واعية وحدها (13).

Tyrrell, Personality of Man , p. 25 (12)

Sorokin, The Crisis of our age, ch.. 30 (13)

وهل يمكننا مثلا أن نفسر نبوّة محمد مثلا بما يقول العلماء اليوم عـــن تفاعل الوراثة والمحيط في تكوين الشخصية.

بماذا نفسر مثلا مقدرة بعض المنوّمين تنويما مغناطيسـياً علـى اكتشاف بعض المغيبات وكيف نستطيع أن نفسر عمل شخص إذ يطير في الهواء بين نافذة وأخرى أو يدعو جمادا فيأتي إليه. وأنا شـخصياً قد رأيت رجلا تعرض عليه أرقام عديدة للجمــع، وبلحظـة واحـدة يعطيك حاصل جمعها مضبوطا.

كثيرا ما نحاول أن نفسر هذه الظواهر الخارقة بإعطائها أسـماء معينة ثم نستريح كأننا قد حللنا المشكلة وكشفنا عن السر، فنقول مثـلا عن ظاهرة من الظواهر الخارقة إنها تنويم مغناطيسي أو إنها سـحر أو إنها عبقرية أو إنها نبوة إلى آخر ما هنالك من أسماء نقولها ولا نفـهم لها معنى.

اجل: أن جزءا كبيرا من الشخصية البشرية لا يـزال سـرا غامضـا، ونحن مع اعترافنا بهذا الجزء الغامض نستمر في بحثنا عن الشخصية من جانبها الواضح المعلوم وهو الجانب الذي يمكن دراسته ومعرفـة العوامل المؤثرة فيه. فلو غضضنا النظر عما في بعض النـاس مـن قوة مبدعة خفية لوجدنا أن الشخصية كما قلنا ما هي إلا تفاعل مسـتمر بين العوامل البيولوجية والعوامل الاجتماعية.

سيداتي سادتي:

وهنـا يجب أن لا ننسى بان الشخصية مـيزة خـاصة بالإنسان

وحده فالحيوان ليس له شخصية وكذلك الطفل لا يملك شخصية عندما يولد إنما تنمو شخصيته شيئا فشيئا كلما كبر في السن. لقد اخرج منذ عدة سنوات أحد العلماء المعنيين بدراسة الحيوانات كتابا بعنوان (شخصية الحيوانات(14)). ولا ريب أن هذا العنوان فيه شيء من الخطأ إذ ليس للحيوان كما قلنا شخصية، وقد تبدو من بعض الحيوانات كالكلب أو الحصان أو القرد بعض العلامات التي تدل على وجود شخصية ولكنا لو تغلغلنا في دراسة هذه العلامات لوجدناها (استجابات مكيفة) أشبه ما تكون باستجابات الآلة المعقدة منها باستجابات الشخص الشاعر بذاته. ونحن في الواقع نسقط شخصيتنا على الحيوان عندما نلمح فيه علائم تدل على الذكاء أو الوجدان، أي إننا نفسر حركاته بنفس التفسير الذي نفسر به حركاتنا وبهذا نعزو إليه شخصية ليست فيه، وهو منها برئ كبراءة الذئب من دم ابن يعقوب.

الشخصية أيها السادة صفة خاصة بالإنسان وحده ولعل في بعض الحيوانات العليا شيئا من بوادر الشخصية ومبادئ تكوينها، ولكن الإنسان وحده ملك تلك المزية النادرة التي جعلته ينتج لنا هاتيك الألوان العجيبة من الحضارات وروائع التفكير.

يقول الدكتور يوسف مراد في هذا الصدد: ((... الشخصية بمعناها الكامل تقتضي وجود الشعور بالذات، وإذا افترضنا أن لبعض الحيوانات المقدرة على الشعور بالذات فإن هناك

---

(14) H.Fox, The Personality of Animals.

شرطا آخر يرجح عدم وجودها في الحيوانات وهو عوقـــان الحيــوان إلى تحقيق شخصية مثالية يتصورها كغرض أسمى ... (15))).

ومما يجدر ذكره هنا أن الشخصية ليست موهبـــة طبيعيـــة فـــي الإنسان يرثها كاملة، في جملة ما يرث من آبائه وأجداده. إنها فـــي الواقع اكتسابية تنشأ في المجتمع، ولولا المجتمع لما نشأت الشخصية. ولو ربى الإنسان في الحيوانات منذ طفولته لما نمت فيه شخصية ولما نشأ شعور فيه شعور بالذات.

ولقد ثبت أيضا أن الشخصية مركب قلق من الســهين أن يتفكـك والممكن أن ينقسم ويتعدد. وكثيرا ما عثر الباحثون على أفـــراد مـن الناس لهم شخصيتان أو اكثر. وقد استطاع الدكتور (برنس) بطريقـــة تشبه التنويم المغناطيسي أن يجعل فـــي إحـــدى الفتيـــات شـــخصيتين مختلفتين بعمل بإحداهما تارة ثم تعمل بالأخرى تارة أخرى، وهـــي إذ تعمل بإحدى شخصيتيها تنسى شخصيتها الأخرى(16).

يرى الدكتور سارجنت العالم النفسي المعاصر انه شاهد بنفسه امـرأة لها شخصيتان، قد ذهبت تـــودع زوجـــها فـــي محطـــة القطـــار بشخصيتها الاعتيادية، ولم تشعر بنفسها بعد ذلك إلا وهي فـــي مدينـــة أخرى تعيش بشخصية أخرى وتحيى حياة العزوبة غير مدركة بأنـــها هي هي تلك الزوجة التي ودعت زوجها في محطة القطار (17).

---

(15) يوسف مراد، مبادئ علم النفس العام، ص339

(16) انظر محمد عطية الابراشي، الشخصية، ص 226 – 227.

(17) Sargent, op. Cit., p 68.

وإننا إذا أردنا أن نفهم هــذه الظــاهرة العجيبــة،ظــاهرة تعــدد الشخصية أو انقسامها،علينا قبل كل شيء أن نتعمق قليلا لكي نصــل إلى مركز الشخصية أو قاعدتها التي تنشأ حولها وتستند عليها.

يقول العلماء أن مركز الشخصية هو الشعور بالذات أو ما يسـمى أحيانا بالنفس. ونحن لا نقصد بالنفس هنا المعنى المتداول لدى النــاس عن الروح، فالروح غير النفس، وقد اخطأ كثير من الكتاب في خلطـهم بينها.

أن الروح أيها السادة ظاهرة ميتافيزيقية أو بيولوجيــة لا نعــرف عنها شيئا، أما النفس فهي ذلك الشعور الذي يجعلــك تقــول (أنــا) أو تشعر بذاته مميزة عن الذوات الأخرى المحيطة بك.

ما هي النفس، وما هو الشعور (بالانا) ؟ قد يجد رجــل الشــارع هذا السؤال تافها أو سخيفا، فهو يحس بنفسه ويقــول (أنــا) عشــرات المرات كل يوم وكثيرا ما يقاسي ويكابد في سبيل تأكيد هـــذه (الأنــا) وإنمائها والافتخار بها. فإذا سألته ما هي؟ حك رأسه حائرا أو ابتســم منك ساخرا. أما الفلاسفة فقد ظلوا عدة قــرون يبحثــون فــي هــذه (الأنا)، ما هي وكيف تنشأ في الإنسان.

ويحكى عن أحد مشاهير الحمقى يدعى (هبنقة) أن جعل في عنقـه قلادة من ودع وعظام وخزف فسئل عن ذلك فقال لأعرف بها نفســي ولئلا أضل. فبات ذات ليلة وأخذ أخوه قلادته فتقلدهــا فلمــا أصبــح

صاحبنا هبنقه ورأى القلادة في عنق اخيه قال يا اخي انت انا فما انــا إذن؟ (18).

تنقل هذه القصة في الكتب الفكاهية والأدبية ويقال عن صاحبنــا انه معتوه أو أحمق، كأن الشك في (الأنا) هو من علامات الحمق، فـإذا كان الأمر كذلك فان كثيرا من الفلاسفة وعلمـــاء النفــس والاجتمــاع يصبحون إذ ذاك حمقى!

لقد كان الفلاسفة يبحثون في النفس منذ فجر التـــاريخ الفكــري، ولكنهم كانوا في الغالب لا يختلفون في الجوهر عــن مفــهوم العامــة للنفس والواقع أن أول قنبلة أثيرت في موضوع النفس كــانت الفكــرة التي جاء بها (هيوم) فيلسوف الشــك المشــهور. فقــد حــاول هــذا الفيلسوف أن يثبت بأن النفس لا وجود لها ككيان مستقل بذاتــه، إنمــا هي في زعمه عبارة عن توالي الأفكار والاختبارات حيث يعطي هــذا التوالي شعوراً بوجود شيء هو غير موجود في الحقيقة (19).

ومنذ أيام (هيوم) حتى اليوم اخذ الفلاسفة يضربون يمينا ويســارا في البحث عن ماهية النفس وكيف تنشــأ وتنمــو فــي الإنســان دون الحيوان.

وعلى أي حال فان من احدث الآراء العلمية في موضوع النفــس هو ما جاء به المرحوم (جارلس كوى) أستاذ علم الاجتماع في جامعــة ميشجن سابقا ... وخلاصة ما يقوله كولى في ها الصدد:

---

(18) انظر يوسف مراد، نفس المصدر ، ص337

Joad Guide to Philosophy, p. 230 et seq.(19)

إن النفس مرآة المجتمع، آو بعبارة أخرى: نفسك صـــدى مـــا يعتقـــده الغير فيك وما يعطونك من دور في الحياة الاجتماعيـــة. فـــأنت مـــن أنت؟ أنت تشعر بذاتك وتقول (أنا) طبق ما يتصور النـــاس عنـــك، أو بالأحرى: ما تحس أنت من تصور الناس فيك

وقد عرض الأستاذ (دنيسن) نظرية (كولى) عرضا رائعا، حيـــث قال بان أنواعا شتى من السلوك البشري يمكنك أن تنتجه في الإنســان إذا أوحيت له صورة معينة عن نفسه. وجاء بمثل رجليـــن أحداهمـــا يوحى إليه بطريقة من الطرق أنه نبيل روماني والآخـــر انـــه عبـــد روماني. فان الذي يتصور نفسه نبيلا يأتي بأعمال تشبه ما كان نبــلاء الرومان يقومون بها ومنها اعتقاده بأن العبد يجب أن يقتل إذا عصـــى أوامر سيده. والعبد بدوره يعتقد أن من الجرائم التي تستوجب القتـــل الثورة على سيده أو عصيان أوامره، فهو إذن يتصور نفسه كأنه متــاع يباع ويشرى وملك لسيده النبيل (20).

لقد أجرى أحد العلماء تجربة استعان فيها بـــالتنويم المغناطيســـي حيث أوحى لنائم أن ذاته أو ما يسمى في علم التحليل النفســـي بالـــ (Ego) موجودة في تمثال من الورق المقوى وضع أمامه. فقـــد اخـــذ صاحبنا النائم يعامل التمثال كأنه ذاته قد انطوت فيه حقا، وإذا به يغــار عليه ويغضب إذا أهين ويتألم إذا صفع ويهتز إذا مدح بقصيدة رنانة.

Landis, Social Control, p.60. (20)

ليست هذه الحادثة عجيبة أيها السادة فكل منا مثل هذا الرجل، ولكن بشكل مخفف. وكثيرا ما يوحى إلى أحدنا في حياته الاعتيادية أن شيئا ما أو شخصا معينا اصبح جزءا من نفسه كالولد مثلا أو العشيرة أو العلم أو العقيدة أو البلد أو ما إلى ذلك. وإذا به يثور ويتوثب غضبا كلما جابهه أحد الناس بشتيمة موجهة نحو ذلك الشيء أو الشخص الذي اعتبره جزءاً لازباً من نفسه. ومن السهولة نعثر على شخص حاضر بيننا الآن يغضب لكلمة بريئة تقال له لا لسبب إلا الآن هذه الكلمة أصبحت جزءا من ذاته على وجه من الوجوه.

والحقيقة يا سادتي إننا جميعا في جميع شؤون حياتنا واقعين تحت تأثير يشبه تأثير التنويم المغناطيسي، ولنسميه بتأثير (التنويم الاجتماعي). فالطفل عندما يفتح عينيه للحياة وهو صغير يبدأ منومه الكبير، أي المجتمع، بالإيحاء إليه بأنه فلان ابن فلان وانه جزء لا يتجزأ من عائلة وطبقة معينة وان الواجب عليه أن يفعل كذا ويقول كذا. وبدأ فهو ينشأ وهو كالمنوم ينظر إلى نفسه كما ينظر الناس إليه ويقوم بما ينبغي أن يقوم به حسب ما أوحت إليه الجماعة التي يعيش فيها.

ونحن لو درسنا التنويم المغناطيسي دراسة علمية لوجدناه يشبه بعض الشبه التنويم الاجتماعي: فالمنوم المغناطيسي يحاول تنويم أحد الناس بأن يقول له مكررا بعد أن يركز نظره في نقطة ثابتة أمامه: ((أنت ستنام .. أخذت عضلاتك بالارتخاء .. بدأ جسمك بالتخدير

تدريجيا ... وامتلأت عيونك بالدموع .. لقد أصبحت جفونك ثقيلة .. أصبحت اثقل .. الرؤيا غير واضحة .. الجسم متخذر اكثر .. الآن أصبحت الأجفان ثقيلة .. جدا .. وغلبتك الرغبة في النعاس .. أخذت أجفانك بالانطباق .. الآن انطبقت أجفانك ... انطبقت تماما وأخذت بالالتصاق .. التصقت اكثر .. ولا يمكنك فتحها إلا حينما أقول لك ذلك .. أن لا تستطيع الآن فتحها ... لا تستطيع أبدا .. لا تتمكن من فتحها إلا حينما أقول لك ذلك .. أنت الآن نائم نوما مغناطيسيا مريحا .. أنت مرتاح وسعيد .. تعمق في النوم . تعمق اكثر .. انك سعيد جداً .. تعمق في النوم .. تعمق))(21). هكذا ينوم الإنسان تنويما مغناطيسيا: بالتلقين والإيحاء والتكرار، فإذا نام استطعت أن توحي إليه بكل شيء أو أن تأمره فيطيعك فيما سوف يعمل بعد يقظته. فما الفرق إذن بين هذا التنويم المغناطيسي وذلك التنويم الاجتماعي؟!

أن المنوم المغناطيسي يستطيع أن يجري تجارب مضحكة على النائمين. فهو مثلا يستطيع أن يوحي لهم بأنهم إذا استيقظوا اصبحوا غنما، ثم يوحي لأحد منهم بأنه الراعي وان عليه أن يسوقهم بكل حذر وتؤده. فإذا استيقظ هؤلاء شعروا حقا بأنهم غنم واخذوا يمشون على أربع ويصيحون (باع)، وأخذ الراعي يسوقهم برفق كما أوحى إليه، ولو انه لقن بأن يسوقهم بالقسوة لما قصر في ذلك أبدا.

يقال أن أحد رجال الدين المتزمتين نوم ذات مرة وأوحى إليه أثناء النوم انه إذا سمع دق الساعة بعد استيقاظه فانه يجب أن يلقى

(21) انظر شاكر الخفاجي، كيف تكون منوما مغناطيسيا ناجحا، ص 25-27.

KMH

عند ذاك خطبة رنانة في مدح الكفر والزندقة. فلما استيقظ هذا الرجل المتزمت جلس كعادته يتحدث ولكنه لم يكن يسمع دقة الساعة حتى قلم ناهضا واخذ يلقي خطابا حماسيا في مدح الكفر كما أوحى إليه أثناء النوم. وبعد انتهائه من إلقاء كلمته سأله أحد الحاضرين عن علة ما شوهد فيه من تناقض. فأخذ صاحبنا المسكين يأتي بالحجج والبراهين القاطعة انه لم يناقض نفسه وانه ما عمل هو الصواب وانه لم يقصد إلا الخير. وربما أيد قوله كعادته بنتف من الحديث وما تيسر من آي القرآن الكريم.

لا تسخروا من صاحبنا هذا أيها السيدات والسادة، فكلنا مثله ولكن أسلوب التنويم مختلف. أن تسعة أعشار ما نعمل وما نقول وما نفكر وما نشعر، كما يقول (لاندس)، منذ استيقاظنا في الصباح حتى رجوعنا إلى فراش النوم في المساء يجري طبق ما يوحي إلينا المجتمع به من قواعد وقيم وآداب وعادات (22). نقوم بكل ذلك ونحن نعتقد بأننا مخيرون فيما نعمل وإننا أردنا ذلك وقصدنا إليه وفكرنا فيه قبل البدء به، إلى آخر ما إلى هنالك من أوهام. الواقع إننا نفعل ذلك بناء على ما أوحى به إلينا المنوم الأكبر، أي المجتمع، ثم نأخذ بعدئذ كذلك التدين المسكين، نبحث عن المعاذير ومختلف أنواع التبرير والتسويغ، لكي نظهر أمام الناس كأننا لم نناقض أنفسنا.

يقول النبي محمد: ((الناس نيام إذا ماتوا استيقظوا))(23).

---

(22) Landis, op. Cit, p.66.

(23) الغزالي، المنقذ من الضلال، ص: 75.

فنحن ما دمنا في هذه الحياة نعيش في مجتمع، فان جل تفكيرنا وأعمالنا جارية على أساس الإيحاء الاجتماعي الذي نتلقفه منذ أيام طفولتنا الأولى فينغرز في أعماق عقولنا الباطنة، ونسير على حسبه من حيث ندري أو لا ندري؛ حتى إذا رأينا عادة تختلف عن عاداتنا أو عملا يختلف عما تعودنا عليه أخذنا العجب وشرعنا نسخر ونضحك كأننا وحدنا في هذه الدنيا أبرياء من الغفلة، مع إننا كلنا حقا في غفلة، أو كما قال النبي محمد: كلنا نيام نستيقظ عند الموت. وقد يحلو للبعض أن يقول متفكها: ومن يدري، فلعلنا نغط بعد الموت في نوم آخر !

****

قلنا آنفا بان النفس مرآة الغير حيث ينعكس على صفحاتها شعور الجماعة المحيطة بها. وليس يعني هذا القول بان هذه المرآة صافية أو مضبوطة، إنما هي في الواقع مرآة تحتوي على كثير من العقد والتشوهات والالتواءات. فقد يكون أحد الأطفال ذا عاهة أو يكون نحيلا واقعا تحت رحمة أقرانه الأطفال ومعرضا لاستهانتهم وإيذائهم، فان مرآة نفسه تتكون من آنذاك وفيها عقدة عميقة من الصعب عليه أن يزيلها عند الكبر. فقد تظهر في هذا الطفل مواهب عبقرية تجعله محترما ومشهورا بين الناس في كبره ولكن عقدة النقص التي نشأت في نفسه منذ الطفولة تمنعه من الإحساس بهذه المنزلة الاجتماعية التي نالها إذ هو يظل يستصغر نفسه ويراها موضع الاستهانة والسخرية.

كان (باستور) مثلا فيه عرج قليل ونحول، ولعله كان يشعر منذ طفولته بنقص في نفسه. وبعد اكتشافه للميكروب وانتشار اسمه في العالم ظل هو يشعر بنقصه، حتى انه دخل مرة في محفل كبير عقد للاحتفال به، وعندما سمع الهتاف والتصفيق اثر دخوله القاعة تلفت نحو صديق له كان بجانبه متسائلا: لماذا هذا التصفيق ؟ أدخل وليّ العهد ؟. فقد كان يظن أن التصفيق كان نتيجة دخول ولي العهد.
والعجيب أن هناك بعض الناس من إذا سمع بتصفيق لولى العهد ظن أن تصفيق له، والجنون فنون كما تعلمون ..

ولقد وجد أن وجد أن أتهم عامل في تكوين الشخصية هي الجماعة الأولية التي ينشأ فيها الطفل لأول عهده بالحياة. وأعني بالجماعة الأولية تلك الجماعة التي تتألف من أفراد العائلة والجيران ورفقاء طفولة وأقران المدرسة. فهذه الجماعة في الغالب تصب شخصية الطفل في قالب يصعب عليها بعد ذلك أن تبدلسه أو تغيره. فالطفل إذ يفتح عينه للحياة يجد انه قد أعطي منزلة، عالية أو واطئة، من قبل أولئك الذين يحيطون به. فهم يصدرون عليه حكماً حسناً أو قبيحاً ويظلون يكررون عليه هذا الحكم، بحيث يأخذ الطفل يتصور نفسه طبقاً لما تتصوره الجماعة المحيطة عنه. وعلى هذا تبدأ شخصية الطفل بالنمو تراكماً على هذه النواة المركزية: نواة النفس الناشئة.

ولنأت بمثلين محسوسين على ذلك نراهما في كثير من الشخصيات

التي نلقاها كل يوم. فهذا طفل قد نشأ في بيت ثراء وشهرة وقد وهب شيئا من صباحة الوجه وحسن القامة مضافا إلى جمال الملابس وحسن الهندام. فتراه إذن محفوفا بالاحترام بين أقرانه وأبناء جيرته علاوة على حب والديه له وتدليلهما إياه. فهو مسموع الكلمة رفيع الصوت كثير الأصدقاء والأعوان، لا يكاد ينازعه أحد حتى يتهافت الناس إلى مساعدته والوقوف إلى جانبه، سواء أكان ظالما أو مظلوما انه ينشأ إذن وهو واثق بنفسه يأتي بالكلام على عواهنه ويعتقد انه أتى بالوحي المبين لأنه تعود أن يجد من الناس قبولا لكل ما يأتي به حقا أو باطلا. وشخصية هذا الطفل ستكون في الغالب منبسطة متفائلة صافية الأديم ليس فيها ما يدعوها إلى الكفاح أو الكدح المتواصل.

وبعكس هذه الشخصية شخصية ذلك الدميم الكادح الذي ينشأ في بيت فقير فتراه مضطهدا لا يكاد ينطق بكلمة حتى ترى الاحتقار باديا على الوجوه، انه قد يصبح منطويا يطلب الشهرة من طريق غير طريق الأصدقاء والعشراء. ومن هذا النوع ينبغ النابغون، وكذلك قد يخرج منه المجرمون أو الجبناء أو أصحاب الحقد والتعلثم والبلاهة.

وقد يصادف أن يجد هذا الطفل المضطهد نوعين من التقدير في جماعته الأولية. فقد يجد أن أبويه رحمة واحتراما ومن أقرانه استصغارا واحتقارا، ولذا فقد ينشأ في نفسه نزاع عميق يؤدي به أحيانا، إذا كان موهوبا بالذكاء والحكمة، إلى عبقرية تتطأطأ لها الرؤوس.

وجد بعض الباحثين أن المجرمين في بعض البلاد تكثر فيهم دمامة الوجه أو العاهة، فاستنتجوا من ذلك أن المعية الدميم يميل بطبعه إلى الإجرام لأنه، على زعمهم، يمثل نكسة بيولوجية نحو الطبيعة الحيوانية الأولى. أن هذا الاستنتاج مغلوط من أساسه. فليس هناك مجرم حدث فيه الميل إلى الإجرام طبيعة. الإجرام اكتسابي في اغلب الأحيان، وسببه اجتماعي. أن الدميم ليس مجرماً بالطبيعة كما يقول بعض المترفين، إنما هو قد وصفه المجتمع منذ طفولته بالإجرام من اجل دمامته المكروهة، فنشأ مجرماً؛ أي أن المجتمع كره هذا الطفل الدميم وحكم عليه بالسجن لأقل سبب وعامله بخشونة وظلمه وأذاه فاصبح مضطراً على الجريمة سائراً في سبيلها أراد ذلك أم كره.

فلو اقترفت جريمة وكان حضر اقترافها شخصان، أحدهما جميل والآخر دميم، فان الشرطة عادة تكون أميل وأسرع إلى إلقاء القبض على الدميم منها على الجميل؛ وإذا جيء بالاثنين إلى المحكمة، فان الحاكم عادة يكون أميل إلى إدانة الدميم والإفراج عن الجميل، فإذا أدين الدميم وذهب إلى السجن، تعود هناك أفانين الجريمة حيث يتلقنها من زملائه في السجن، وهكذا يتخرج من السجن أستاذاً في الجريمة أو حاملاً لشهادة الدكتوراه فيها؛ وإذا أراد يتوب لم يتب الناس عنه، فهم يطالبونه عادة بشهادة حسن السلوك في أي عمل شريف يريد أن يعمل به. انه مضطر إذن على أن يكون مجرماً. لقد وسمه المجتمع بطابع الجريمة، فهو لا يتصور نفسه إلا كما يتصوره المجتمع،

وتجده لذلك يبحث عن أقران له يماثلونه في المصير؛ فيؤلفون عصابة منظمة تتعاطى الإجرام وتتخذه حرفة لها. وفي جو العصابة هذه يكتشف المجرم نفسه مرة أخرى، إذ هو يخلق فيها من جديد بنفس جديدة لها كرامتها ومنزلتها في مجتمع العصابة الصغير، وذلك بعد أن فقد الكرامة التي بخل المجتمع الكبير بها ... هكذا يصنع المجتمع بيده قاتليه!

أن هذا هو ما يجري فعلاً بين الزنوج في المجتمع الأمريكي، فقد وجد بالإحصاء أن نسبة الإجرام بين الزنوج أعلى كثيراً مما هي بين البيض. أن هذا لا يعني بأن الزنجي ميال بطبعه إلى الجريمة. الواقع أن الزنجي اصبح ميالاً إلى الإجرام لان المجتمع كرهه واحتقره، وأسرع إلى عقابه أو إيداعه في السجن لأقل حادث. فاصبح السجن إذن غير معيب في نظره بعد أن تعود عليه وكثر ترداده فيه، انه مسوق إلى الإجرام مدفوع عليه، من اجل لونه الأسود أو انفه الأفطس أو شفافه الغليظه.

وكذلك قل عن الفقير. فلا نكران بأن الفقر نفسه من أكبر العوامل في الإجرام، ولكن ضعف الفقير إزاء الغني، وقلة ناصريه في دوائر الحكومة، عامل آخر يؤدي به إلى السجن سراعاً ويسمه بطابع الجريمة. فلا يكاد الفقير يقترف جنحة بسيطة حتى ترى الحكومة قائمة قاعدة، وقد اخذ منها الحماس لحفظ الأمن مأخذاً عظيماً؛ بينما هي تتغاضى، وتتمطى، إذا اقترف الغني جريمة شنعاء..

وقد يذهب الغني إلى بيته مبرءا ناصع الجبين، بينما يودع الفقير في ظلمات السجون.

يقول الغني بأن الفقير اصبح فقيراً لأنه شرير، وما درى انه اصبح شريراً لأنه فقير.

سيداتي سادتي

وعلى أي حال يمكن الاستنتاج بشيء من اليقين بأن النفس البشرية، وما يتكون حولها من شخصية، هي صنيعة الجماعة أو صورة منعكسة عنها. وهنا قد يسأل سائل فيقول: إذا كانت النفس صنيعة الجماعة، فما المانع إذن أن يكون للإنسان عدة نفوس: على عدد الجماعات التي ينتمي إليها؟ أن هذا السؤال يؤدي بنا، والحق يقال، إلى موضوع في غاية الأهمية. يقول ويليام جيمس بان الإنسان عادة له عدة نفوس لا نفس واحدة(24). فأنت حينما تلاقي جماعة ما اتخذت إزاءها نفساً تختلف عن النفس التي تتخذها إزاء جماعة أخرى.

ومن المضحك حقاً أن نجد الإنسان حينما يخلع عن جسمه بدلة من الملابس ليلبس بدلة أخرى مكانها، سيما إذا أراد الحضور في حفل أو جماعة معينة، تراه قد تقمص مع البدلة الجديدة نفساً أخرى جديدة. فهو إذا حضر الحفل تراه يتحرك ويتفوه على نمط يختلف عن النمط الذي كان عليه قبل سويعة في جماعة أخرى.

W.James, Psychology, p.179. (24)

فهو تراه الآن مثلا جادا وقورا وطنيا، مقاطعا لكـــل مـــا هـــو ضـــار بالوطن، ثائراً على كل من يستهين بحقوق البلاد، بينما قد كـــان قبـــل سويعة شخصاً غير هذا الذي نراه الآن هازلاً مستخفاً يضحـــك علـــى الوطن ومن فيه.

وكثيراً ما نرى من بين اصدقائنا من يتغـــير تمامـــاً فـــي جميـــع حركاته وسكناته حالماً يشاهد امرأة أو زمرة من النساء علـــى مقربـــة منه. ونستطيع القول انه يتغير آنذاك حتـــى فـــي منطقـــه وأسـلوب تفكيره. فهو ربما كان عدو المرأة إذا كان بعيداً عنها ولكنـــه يصبـــح على مقربة منها من اكبر المدافعين عنها والداعين إلى إعطاء حقوقـــها كاملة غير منقوصة.

وكثيراً ما نرى الناس يناقضون أنفسهم ولا يشعرون بذلك، فـــإذا تحرينا السبب وجدنا انهم قد يقولون قولاً أثناء تقمصهم لنفـــس معينـــة من نفوسهم العديدة، فإذا تحولوا إلى نفس أخرى تراهم قد اندفعوا إلـــى القول بما يناقض قولهم الأول وهم لا يشعرون.

أن كلاً منا يشعر، بلا ريب، بما يرى في نفسه وطريقـــة تفكـــيره من تحول كبير: يحدث حالما ينتقل صباحاً من بيته إلى دائرة عملـــه، وينتقل مساء من بيته إلى النادي أو المقهى. فهو في بيته غـــيره فـــي الدائرة وهو غيره في المقهى، يسير على هذا اعتياداً غير مدرك لمـــا يطرأ عليه من تناقض قد يضحك الثكلى.

والإنسان عادة لا يستغرب من نفسه هـــذا التحـــول والتنـــاقض،

ولكنه يستغرب كل الاستغراب إذا لاحظ شيئا من ذلك في غيره. فهو قد يستغرب إذا سمع مثلاً بان موسوليني ذلك الدكتاتور الذي كان يسيّر إيطاليا بيد من نار وحديد، كان يسيّر في البيت اصغر أولاده .. بيد من طين وعجين ! وكذلك يندهش الإنسان إذا سمع بان جباراً من جبابرة التاريخ كان في البيت آلة طيعة بيد زوجته تلعب به كما تشاء كالطفل.

الإنسان إذن ليس كما كان المفكرون القدماء يتصورنه: من حيث كونه حيواناً عاقلاً يسير على ضوء ما يميله عليه المنطق، وما يؤدي به التفكير المستقيم.

يقول (ملز) أستاذ علم الاجتماع في جامعة كولومبيا بان التفكير ما هو إلا حديث صامت بين الإنسان وشخص آخر يتخيله أمامه. وهذا الشخص الذي يتحدث الإنسان إليه في تفكيره قد يمثل الجماعة التي ينتمي الإنسان إليها، أو بعبارة أخرى: يمثل النفس التي يتقمصها الإنسان أثناء التفكير. فأنت لا تستطيع أن تكتب أو تخطب أو تتخيل شخصاً حقيقياً أو وهمياً واقفاً أمامك يستحسن ما تفكر به أو يستقبحه. فأنت إذن تقول عن بعض الأفكار التي ترد في خاطرك إنها حسنة أو معقولة، وتقول عن أخرى إنها غير حسنة أو غير معقولة؛ ودليلك في كل هذا هو ذلك الرقيب الذي يمثل الجماعة أو هو بالأحرى نفسك التي تصور شعور الجماعة.

ولهذا يمكننا أن نستنتج بان المنطق البشري ليس مطلقاً ولا عاماً

فهو منطق نسبي، وكل جماعة لها منطقها الذي تعودت عليه، وأنت إذن تفكر حسب ذلك المنطق الذي اصطلحت عليه جماعتك التي تنتمي إليها. وعلى هذا فان التناقض في تفكير الإنسان كتعدد النفس أمر لا يمكن نكرانه أو لعله أمر لا محيص عنه في كثير من الأحيان.

أن معايير التفكير وقوانينه، في الواقع، تؤخذ من مصطلحات المجتمع وتبنى على أساس قيمه وتقاليده. ومن الصعب جداً أن تقنع أمرءاً على رأي يخالف ما تعود عليه من مصطلحات اجتماعية. انظر مثلاً إلى رجل قد نشأ بين جماعة محافظة تؤمن بالحجاب الشديد وتعتبره دليلاً على عفة المرأة وعلى شرفها. فهذا الرجل قد ارتبط في عقله مفهوم الحجاب بمفهوم الشرف، وتركزت في أعماق نفسه قاعدة منطقية لا تقبل الشك مؤداها: أن المرأة التي لا تتشدد في حجابها لا عفة لها ولا شرف في عائلتها. ومهما حاولت أن تقنع هذا الرجل بأنه لا صلة منطقية هنالك بين العفة والحجاب أنكر ذلك واتهمك بالمكابرة وجمود التفكير أو ضعف الخلق. انه يقيس الأمور ويميز بين المعقول وغير المعقول على أساس القواعد التي تلقنها في مجتمعه، ولن يستطيع الجدل المنطقي الذي تأتي به أن يقنع هذا الرجل بخلاف ما تعود عليه. ولعله قد يوافق على رأيك تأدباً أو خوفاً ولكنه يظل باقياً على رأيه القديم لا يحيد عنه حتى تتغير تلك القواعد الكامنة في أعماق نفسه. وهذا أمر لا يتم إلا إذا اتصل هذا الرجل بجماعة أخرى واتخذ له نفساً جديدة تعكس شعورها وتترنم باغنيتها.

KMH

أن العقل البشري، أيها السادة، كآلة الراديو، فأنت لا تسـتطيع ان تستمع إلى محطة من المحطات إلا إذا أدرت مفتاح الراديو نحو موجة تلك المحطة. وإدارة المفتاح كما تعلمون ما هو إلا تقصير وتطويـل للسلك الخاص المستلم للأمواج لكي يكون مساوياً بسـعته اللاسـلكية لسلك المحطة المرسلة. على هذا المنوال تماماً يعمل العقل البشـري، فهو لا يصغي إلى جدل أو يفهمه أو يقع به إلا إذا كان الجدل مسـتنداً على نفس القواعد المنطقية المتغلغلة في أعماق نفسه.

فرجال الدين كثيراً ما تراهم يتجادلون إذ يريد كل ذي فرقة منـهم أن يقنع الآخرين بأن فرقته وحدها هـي الناجيـة مـن بيـن الفـرق الأخرى. مضت على هذا آلاف السنين من غير جـدوى. انـهم لا يعلمون بان ما هو حسن في نظر فرقة من الفرق قد لا يكـون حسـناً في نظر الفرقة الأخرى، وان كل جماعة لها أسلوب في التفكير قـد لا يستسيغ البراهين التي تأتي بها جماعة أخرى.

وكثيراً ما يحارب الناس بعضهم بعضاً، ويعتدي بعضهم على بعض، وهم مرتاحو الضمير. كأن ما قاموا به من ظلم تجاه غيرهم ليس إلا جهاداً في سبيل الله أو تـأييدا لجـانب الحق ... كما يدعون. وكثيراً ما نرى شخصاً شـديد الأذى لغيره سفاكاً معتدياً على الناس، من غير أن يشعر بشيء من وخز الضمير في كثير الأحيان؛ بينما هو، في أحيان أخرى،

يشعر بالألم الممض ويتقلب على فراشه إذا سمع توجع كلب او انيـــن مريض.

فالضمير، بهذا المعنى، كالعقل من حيث انــه صنيعــة المجتمـع ونتاج إيحاءه. فالرجل الطيب الرؤوف في جماعته قد يكون من اشــد الناس ظلماً واعتداءاً ضد جماعة أخرى.

سيداتي سادتي

بهذا ننتهي من بحث الشخصية البشـــرية بوجــه عـــام. ومنــه نستخلص بأن شخصية الإنسان، بما فيها من نفــس وعقــل وضمــير وعين وغير ذلك، ليست في الغالب الاصنعية من صنـــائع المجتمـع الذي تنشأ فيه. ومن الممكن القول بان الشخصية صــــورة مصغــرة للمجتمع، أو كما قال (دوسن) و (كينز)، ممثلة للحضارة التـــي تنشــأ فيها(26).

ولهذا السبب نجد الأفراد الذيـــن ينشـــأون فـــي مجتمـــع معيــن يتشابهون في بعض الخصائص التي تميزهم عن غــيرهم مــن أبنـــاء المجتمعات الأخرى. وإننا رغم ما نلاحظ بين أفراد المجتمع الواحـــد من تباين وتفاوت، نراهم مشتركين في صفة عامة تجعلـــهم يختلفــون عن غيرهم بفوارق شخصية واضحة.

Dawson & Gettiys, Introduction to Socialogy, p16. (26)

فطن إلى ذلك المفكرون منذ قديم الزمـــــان (27)، ولا تـــزال الأبحــاث مستمرة حتى الآن في سبيل اكتشاف ما يميز الانكريزي مثـــــلا عـــن الفرنسي، والألماني عن الإيطالي، والمكسيكي عن الأمريكي ... الخ

ولست أعني بهذا أن الفرد يأخذ كـــل مميزاتـــه الشـــخصية مـــن المجتمع التي يعيش فيه، فهناك أعماق كل شـــخصية جـــزء دفيـــن لا يمكن أن يخضع لقواعد المجتمع أو يستجيب لإيحائه. أن هذا الجـــزء هو السبب الذي جعل كل فرد من الأفراد يختلف عن غيره في تكويـــن شخصيته رغم منشأه في نفس المجتمع الذي ينشأ فيه غيره. وهذا هـــو ما أدى ببعض الباحثين أمثال (البورت) و (سترن)، إلـــى أن يطلقـــوا على الشخصية سمة الخصومية (Peculiarity) أو الصفـــة التـــي لا يشترك بها معها أحد (28).

يقول (ميد)، أستاذ الفلسفة في جامعة شكاغو سابقا، أن فـــي كـــل إنسان نفسين تصطرعان، وهو يطلـــق عليـــها لفظتـــي me (ايـــاى)

---

27) عدد الجاحظ مزايا كل أمة في عصره فقال: ميزة أهل الصين: الصناعة ... واليونان: يعرفون العلـــل ولا يباشرون العمل، وميزهم الحكم الآداب. والعرب ... وجهوا قواهم إلى قول الشعر، وبلاغة المنطق، وتشـــقيق اللغة، وتصاريف الكلام وقيافة البشر بعد قيافة الأثر، وحفظ النسب والاهتداء بالنجوم، والاستدلال بالإشـــارة، وتعرف الأنوار، والبصر بالخيل، والسلاح وآلة الحرب، والحفظ لكل مسموع والاعتبار بكل محسوس، وإحكام شأن المناقب والمثالب، بلغوا في ذلك الغاية. وميزة آل ساسان: في الملك والسياسة، والأتراك: في الحـــروب ... والزنوج: اطبع الخلق على الرقص والضرب بالطبل ... واشتهر الهنود بالحساب وعلم النجوم وأسرار الطب ... (انظر احمد أمين، ضحى الإسلام، ج1 ص6-7).

K. Young, Personality ..., p. 291. (28)

و I (أنا)؛ أو بعابرة أخرى: النفس الاجتماعية و النفس الطبيعية[29].
وعلى هذا يمكن القول بان كل إنسان يرغب، من ناحية، أن يخضع لقواعد المجتمع؛ ويرغب، من ناحية أخرى، أن يثور عليها.

فالإنسان إذن ليس اجتماعياً بالطبع كما قال ارسطو. إنما هو في الواقع اجتماعي وغير اجتماعي في آن واحد. انه يملك في شخصيته عنصر الخضوع وعنصر الثورة معاً. فهو يخضع لقواعد مجتمعة بإحدى نفسية، ويتمرد عليها بالنفس الأخرى[30].

ونحن إذ نتحول الآن نحو دراسة شخصية الفرد العراقي، ونحاول أن نعين خصائصها ومزاياها، لا نعني أن كل فرد في العراق متصف حتماً بتلك الخصائص العامة. فكثير من الأفراد يميلون إلى التمرد علي ما تعودوا عليه في مجتمعهم من قواعد ومألوفات.

وطالما وجدنا أناسا ينشأون على نقيض ما ينشأ عليه أكثرية المواطنين لهم. أن ما نحاول أن ندرس الآن هو ما في المجتمع العراقي من خصائص تجعله ينتج نمطاً خاصاً من الشخصية في كثير من أعضائه. وإننا سوف لا نعير أهمية كبيرة، إذن، لما يظهر هنا وهناك من الشذوذ في بعض الأفراد الذين يحاولون أن يتساوموا أو يتنزلوا عما عليه أكثرية الناس المحيطين بهم.

Mead, Mind, Self & Society, p. 173. (29)

K. Young, Social Psychology, . p.136 (30)

سيداتي سادتي

أن المجتمع العراقي له، كأي مجتمع آخر، بعض الخصائص التي تميزه عن غيره والتي تؤثر بدورها في تكوين شخصية الأفراد المنتمين إليه. واكبر صعوبة واجهتني في أعداد هذا البحث هي اكتشاف هاتيك الخصائص الاجتماعية وكيفية تأثيرها على تكوين الشخصية العراقية. أجل: لقد وصلت بعد دراسة مضنية إلى بعض النتائج، ولكني اعترف، مع ذلك، بأني لست مطمئنا كل الاطمئنان من صحة هذه النتائج. وجل ما اتمناه أن تكون هذه الكلمة حافزا لغيري من الباحثين العراقيين في أن يستمروا في متابعة هذا البحث عساهم يتوصلون إلى نتائج حاسمة فيه وبذلك يمكن كشف النقاب عن سر من أسرار مجتمعنا الذي ننوء اليوم بعبئه ومشاكله العديدة.

إننا في هذه المرحلة العصيبة التي نمر بها اليوم ينبغي علينا أن نفهم نفسية الشعب العراقي وكيف تنشأ شخصية الفرد فيه وذلك لكي نعرف كيف نسوسه أولا كيف نسير به قدما في مجالات الحياة الجديدة. ثانيا: وأني في الحقيقة لا أرى من النافع لبلدنا أن نغض الطرف عن عيوبنا أو نحاول التبجح دائما بما فينا من محاسن فكل أمة لها عيوبها وليس هناك فرد أو أمة وصلت درجة الكمال في كل شيء والاجدر بنا في هذا الطور الحرج من أطوار تاريخنا أن نركز انتباهنا على عيوننا وادوائنا لكي نستطيع إصلاحها بدلا من الانشغال بذكر حسناتنا حيث لا ننتفع من ذلك غير الغرور المذموم.

لقد لاحظت بعد دراسة طويلة بان شخصية الفرد العراقي فيها شيء من الازدواج وأني وان كنت غير واثق، كما قلت آنفا، من نتيجة هذه الدراسة ولكني أجد كثيراً من القرائن تؤيدني فيما اذهب إليه. وقد يندهش بعضكم من هذا القول حيث انه لا يحس عيانا بهذا الازدواج الذي أعزه إليه. والواقع: أن كثيراً منا فيه هذا الازدواج الشخصي قليلاً أو كثيراً، ولكننا نشأنا فيه، وتعودنا عليه بحيث أُصبح مألوفاً لدينا، وهو يبدوا لنا كأنه طبيعي لا شية فيه.

وأني لا أنكر بأن ازدواج الشخصية ظاهرة عامة توجد بشكل مخفف في كل إنسان حيث وجد الإنسان؛ ولكني أؤكد لكم بأن الازدواج فينا مركز ومتغلغل في أعماق نفوسنا. أن العراقي، سامحه الله، اكثر من غيره هياماً بالمثل العليا ودعوة إليها في خطاباته وكتاباته ولكنه في نفس الوقت من اكثر الناس انحرافاً عن هذه المثل في واقع حياته.

زارنا من أحد الأقطار العربية كاتب، ذات يوم، وكان الوقت رمضان فعجب من شدة تمسكنا بمظاهر الصوم من ناحية ومن كثرة المفطرين بيننا من ناحية أخرى. وربما لا نغالي إذا قلنا بأن المسلم العراقي من أُشد الناس غضباً على من يفطر علناً وهو من أكثرهم إفطارا !... وكذلك يمكن القول بأن الفرد العراقي من اكثر الناس حباً للوطن وتحمساً لخدمة العلم،

بينما هو في الواقع مستعد للتملص من خدمة العلم إذا آن الأوان (31).
انه اقل الناس تمسكاً بالدين وأكثرهم انغماساً بين المذاهب الدينية. فتراه ملحداً من ناحية وطائفياً من ناحية أخرى. وقد يلتهب العراقي حماسة إذا انتقد غيره فيما يخص المبادئ السامية أو رعاية العدل والعفو والرحمة، ولكننا نراه من أسرع الناس إلى الاعتداء على غيره، ضرباً ولكماً، حالما يرى الظروف مناسبة.
انه بهذا ليس منافقاً أو مرائياً كما يحب البعض أن يسميه بذلك. بل هو في الواقع ذو شخصيتين، وهو إذ يعمل بإحدى شخصيتيه ، ينسى ما فعل آنفا بالشخصية الأخرى. فهو، إذ يدعو إلى المثل العليا أو المبادئ السامية، مخلص فيما يقول، جاد فيما يدعي.

---

(31) لقد أدهشني حقاً ما وجد في الولايات المتحدة من حرص ورغبة بين الشبان على التطوع في الجيش أثناء الحرب، هذا مع العلم أن كل أمريكي له الحق قانوناً أن يرفض التجنيد من غير ضير عليه أو حراجة. وطيلة مكوثي في الولايات المتحدة لم اسمع أحداً يتفوه بدعوى حب الوطن أو وجوب التضحية في سبيله. انهم ينسون الوطن في أقوالهم. ويخدمونه في أعمالهم. أما في العراق، فلعلنا لا نبالغ إذا قلنا أن كلاً منا له شخصيتان: شخصية يتحدث بها أحاديثه العريضة ودعاويه الطويلة، وشخصية أخرى يسلك بها حسب ما يمليه الواقع عليه ناسياً هاتيك الأحاديث والدعاوي. يقول بعض المحللين النفسانيين: أن الذي يؤكد على شيء في قوله غالباً ما يكون ضعيف الثقة به في حقيقة أمره، فالأناني يتحدث عن الغيرية، وقليل المال يتحدث عن ماله في كل مناسبة، والشاعر بالنقص قد يتكبر، والحسود قد يترنم بطيبة القلب وينتقد غيره على حسده. أن كبت بعض الدوافع النفسية والتظاهر بعكسها يؤدي أحياناً إلى ازدواج الشخصية. فالعقل الباطن إذا احتبست فيه شهوات ورغبات يحملنا المجتمع على إنكارها، تضغى بنا أحياناً فننسى شخصيتنا المعتادة ونبرز في شخصية أخرى للتنفيس (انظر سلامة موسى، عقلي وعلك، ص57).

أما إذا بدر منه بعدئذ عكس ذلك، فمرده إلى ظهور نفس أخرى فيه لا تدري ماذا قالت النفس الأولى وماذا فعلت. انه قد يدعو، مثلاً، إلى مقاطعة البضائع الصهيونية، في مجالس الوقار ومحافل التحذلق؛ ولكنه إذا دخل إلى السوق، يريد شراء بضاعة من البضائع، تراه قد نسى ما قال، واندفع مشترياً أي بضاعة تقع في يديه وعليها سمة الجودة والرخص، متغاضياً عن السؤال فيما إذا كانت صهيونية أم غير صهيونية.

حدث مرة أن أقيمت حفلة كبرى في بغداد للدعوة إلى مقاطعة البضاعة الأجنبية؛ وقد خطب فيها الخطباء خطباً رنانة وأنشد الشعراء قصائد عامرة. وقد لوحظ آنذاك أن اغلب الخطباء والشعراء كانوا يلبسون أقمشة أجنبية، والعياذ بالله !

وهكذا نستطيع أن نأتي بأمثلة عديدة تؤيد ما قلناه عن ازدواج شخصية الفرد العراقي.

وللبحث في أسباب هذا الازدواج يجدر أن نوجه انتباهنا في هذا الموضوع إلى نواح ثلاث:

(1) الناحية الحضارية (2) الناحية الاجتماعية (3) الناحية النفسية. ولنبدأ أولاً بالناحية الحضارية:

أن من غرائب الصدف حقاً أن نجد العراق وقعاً، اكثر من أي بلد آخر تقريباً على هامش البداوة والمدنية معاً. فهو قد كان مهداً لمدنية تعتبر اليوم من اقدم المدنيات البشرية؛ وقد قيل في المأثورات

الدينية ان ادم عليه السلام، كان مسكنه جنوب العراق(32). هـــذا مـــن ناحية ثم نجد الناحية الأخرى انه واقع على حافة صحراء تعج بـــالبدو وتمد الأقطار المجاورة بأمواج متوالية منهم حيناً بعد حين.

أن هناك والحق يقال صحاري عديدة منتشرة في نواحي الأرض، ولكن هذه الصحراء المتأخمة للعراق تميزت بصفة خاصة، هي صفـــة الجفاف المتزايد على مدى القرون. فقد كانت هـــذه الصحـــراء فـــي العصور القديمة كثيرة الماء وافرة الخير، ولذا كـــثر ســـكانها آنـــذاك ولكن العوامل الجيولوجية بعد انسحاب العصر الجليـــدي الرابـــع أدت إلى أن يقل المطر في هذه الصحـــراء تدريجيـــاً (33)، ممـــا اضطـــر ساكنيها على الهجرة إلى البلاد المجاورة.

---

(32) أن كثيراً من المأثورات الدينية اصبح لها قيمة علمية في الأبحاث الاجتماعية؛ ونحن هنا لا يهمنا من قصة آدم كونه خلق من طين أو أن الملائكة صلت عليه إلا إبليـــس أبـــى واستكبر؛ فهذه أمور قد نعود لبحثها في فرصة أخرى؛ إنما الذي يهمنا الآن هو ما ذكـــرت المأثورات الدينية عن آدم من انه علم الناس الزراعة أو أن صنعته كانت الزراعة، فقـــد روى عن النبي محمد ((افضل الكسب الزراعة، فإنها صنعة أبيكـــم آدم)) (عبـــد القـــادر المغربي، الأخلاق والواجبات، ص84). وفي هذا إشارة لا تخفى على أن الزراعة بـــدأت في العراق وكذلك بدأت به المدينة على اعتبار أن قيام المدنية كان مرادفاً لقيام الزراعـــة. ومن الممكن القول أيضا: بان آدم لم يكن أبا البشر جميعاً بأنواعهم العديدة، فهناك أنـــواع من البشر سبقوا آدم، كما أشار ابن خلدون في تاريخه. أن آدم بالأحرى، هو أبو البشـــر المتمدنين الذين امتهنوا الزراعة؛ وهو حسب المأثورات الدينية، قد كان ساكناً في جنـــوب العراق حيث بزغت أنوار المدينة الأولى في فجر التاريخ.

(33) انظر Jamali, The New Iraq, p.17-IS

وقد تلقى العراق من هذه الموجات البدوية اكبر نصيـــب، إذا خصـــب ممرع في مدينة زراعية جذابة وليس فيها ماء يمنع البدو مـــن النفـــوذ إليه من جبل أو بحر أو غير ذلك (34).

ومن المحتمل جداً بأن العراق كان مهداً لاول دولة في التـــاريخ؛ فمنشأ الدولة بصورة عامة، كما يقول اوبنهايمر، هو هجوم البدو علـــى سكان القرى وتسيطرهم عليها ولذا يمكن القول بان العراق كـــان مـــن اوائل الأقطار في العالم التي نشأت فيها طبقتان: طبقة حاكمة وطبقـــة محكومة، أو بعابرة أخرى: غالبة ومغلوبة.

أن هذه الحقيقة الحضارية تؤدي بنا إلى نتيجة عظيمة الاهميـــة؛ حيث نجد في العراق، منذ بدء المدينة الأولى، طبقتين أو حضـــــارتين تتصارعان: حضارة بدوية محاربة من ناحيـــة وحضـــارة زراعيـــة خاضعة من ناحية أخرى.

فنشأ في العراق بناءً على ذلك، نظامان للقيم: نظام يؤمن بـــالقوة والبسالة وتسود فيها قيم الاباء والشجاعة والكبرياء وما إلى ذلك مـــن صفات المحارب الفاتح؛ وبجانبه نظام آخر يؤمـــن بـــالكدح والصـــبر ويمارس أداء الضريبة والخضوع والتباكي.

أن هذا الصراع الحضاري، أو ما يسمى في علم الانـــثربولوجي: (Clash of Cultures)، قد أثر في شخصية الفرد العراقي تـــأثيراً بليغـــاً. فالفرد العراقي اصبح مضطراً أن يقتبس نوعين من القيم الاجتماعيـــة،

---

(34) انظر H. G. Wells, Outline of History. P.162-164



او يقلد طبقتين من الناس: طبقة البدوي الغالب وطبقة الفلاح المغلوب، فهو تارة يؤمن بالغلبة ويتباهى بها أو يحاول أن يظهر قوته على غيره، وهو تارة أخرى يئن من سوء حظه ويشتكي من ظلم الناس له.

ففي بعض الأحيان تراه يفتل شاربه ويرفع عقيرته قائلاً: ((أنا أبو جاسم، والمصطفى لأسقط سبع دول)). وتراه في أحيان أخرى يغني مكتئباً: ((شيفيد السعي لو نام البخت والحظ ... أنا من أقول آه وأتذكر أيامي ... ظلام ما عندكم رحم، ياللي ظلمتوني ... وين المروة، كلبي تجوه ...)).

استمعوا إلى أغانينا تروها تعج بالشكوى والتألم. ومما يحكي في هذا الصدد أن أحد الطلاب العراقيين الذين يدرسون في أمريكا ذهب مرة لزيارة صديق له عراقي أيضاً؛ فلم يجده في البيت، فجلس مع أم البيت يتحدث عنه، فقالت السيدة تصف العراقي الساكن في بيتها بأنه فتى طيب ولكنه لا يكاد يدخل الحمام حتى يشرع بالبكاء. يقول صاحبنا فعجبت من هذا القول وبقيت انتظر صديقي حتى أتى، فسألته عن سبب بكائه في الحمام فقال: لا .. لم ابك في الحمام، إنما كنت اغني بوذية عراقية فقط لا غير.

وفي الواقع أن أغانينا كلها بكاء ونحيب. فالعراقي يبكي في أغانيه ويشتم في حديثه. هو يتألم إذا غنا، ولكنه لا يكاد يلمح ظروفاً مساعدة حتى يهجم معتدياً أو يشتم مغاضباً. ولعلنا لا نخطأ إذا قلنا أن العراقي يكون خاضعاً ((مازوكيا)) عند مواجهة ما هو أقوى منه.

بينما يكون هو غضوبا ((ساديا)) إذا واجه ضعيفا.

أعود فأقول أن هذه ظاهرة موجود في كل نفس بشرية، ولكنها في النفس العراقية أقوى وأوضح لان قيم البداوة والزراعة قد ازدوجتا في العراق منذ اقدم العصور ولا تزال تصطرع في أنفسنا حتى اليوم(35).

هذا ولقد ازداد هذا الازدواج وتأسس تأسيساً اجتماعياً في العهد العباسي عندما أصبحت بغداد عاصمة الإمبراطورية الإسلامية. فلقد نشأت في العراق آنذاك اغلب العلوم الإسلامية وترجم المنطق اليوناني. ولو رجعنا نحو أولئك المفكرين الذين ساهموا في هذه الحركة العلمية الجبارة لوجدنا جلهم من أبناء الطبقة المغلوبة، إذ كانوا حضراً في الغالب ولم يكن فيهم من أبناء البداوة إلا قليلاً. ومعنى ذلك أن تفكيرنا قد اصطبغ منذ ذلك الحين بصبغة المثالية الزاهدة الخاضعة. أما أعمالنا فبقيت تحت تأثير القيم البدوية لأنها كانت القيم السائدة فعلاً في الطبقات العليا. وبهذا أصبحنا نعيش في عالمين متناقضين عالم الفكر المثالي من ناحية وعالم الفعل الواقعي من ناحية أخرى. فأصبح أحدنا يجادل على أساس المنطق الارسطاطاليسي والمثالية الدينية بينما هو في الواقع من أبناء هذه الدنيا غضوباً حقوداً.

---

(35) أن من دلائل هذا الاصطراع بين قيم البداوة والمدنية في العراق هو ما نشاهده من ازدواج في القانون، فليس هناك في الدنيا مجتمع حديث يسيطر فيه قانونان قانون عشائري وقانون مدني: والعراقي مترنح بين هذين القانونين لا يدري أين يتوجه. انه يرقص رقصة عشائرية ويغني أغاني مدنية، وخلاصة الأمر: نشاز!

ومن العجيب حقا أن نرى بين مثقفينا ورجال الدين فينا من يكون ازدواج الشخصية فيه واضح: فهو تارة يحدثك عن المثل العليا وينتقد من يخالفها، وتارة يعتدي أو يهدد بالاعتداء لأي سبب يحفزه إلى الغضب تافه أو جليل، ضاربا عرض الحائط بتلك المثل التي تحمس في سبيلها قبل ساعة.

ومن غرائب الصدف أن المجتمع العراقي كان في صدر الإسلام موطنا لعدد كبير من أقطاب التفكير الديني وأعلام المنطق والفلسفة ففيه عاش كثير من صحابة الرسول(36)، وفيه نشأت فرقة المعتزلة وفيه ظهر كثير من أقطاب التصوف وائمة الإسلام. فهؤلاء الإعلام الأخيار طبعوا التفكير العراقي بالنمط المثالي وجعلوا الشعائر السائدة في العراق تنشد احترام الواجب وتمج الأخلاق الفاضلة. ولذا اصبح الفرد العراقي متعودا أن يخطب ويكتب في حدود ما يستوجبه الدين أو يقتضيه المنطق من أفكار سامية وبراهين دامغة؛ ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يغير من طراز حياته اليومية شيئا، ولذلك صار مقتمصا شخصيتين أو ذاتين مختلفين: ذاتا يفكر بها وذاتا أخرى يعمل بها. وما ابعد ما بين هاتين الذاتين!

أيها السادة لقد اشتهر العراقيون في صدر الإسلام بأنهم أهل شقاق ونفاق وقد حاول بعض المفكرين القدماء،

---

(36) انظر حسين البراقي، تاريخ الكوفة، ص384 – 398.

كالجاحظ مثلا(37)، ان يضروا هذه الظاهرة الاجتماعية في العراق: اي لماذا كان العراقيون أهل شقاق ونفاق؟ ولماذا كانوا يشجعون بعض الزعماء على الثورة ثم يتخلون عنهم ساعة الضيق؟

حاول المفكرون القدماء أن يفسروا هذه الظاهرة فلم يفلحوا، ونحن اليوم إذ نحاول تفسيرها على ضوء علم الاجتماع الحديث نجدها واضحة لا تحتاج إلى تفسير عسير. فالعراقي في حياته الواقعية لا يختلف عن غيره من الناس إذ هو منجرف في تيار الحياة يطلب الشهرة ويبغى الشهرة ويرجو الضمان. لا فرق في ذلك بينه وبين غيره من الناس. الفرق موجود في تفكيره المثالي فقط، فهو يفكر بمبادئ لا يستطيع تطبقها ويدعو إلى أهداف لا يقدر على الوصول إليها، ولذا تجده يقول للزعماء انهضوا فأني معكم، ثم إذا نهضوا وجد في نهضتهم مخافة فقبع في بيته يشكو من تصاريف الزمان.

ومن هذا قيل أن حماسة العراقيين كنار الحلفاء لا تكاد تلتهب حتى تخمد؛ تلتهب مع المثال وتخمد مع الواقع.

ولعلنا غير مخطئين إذا قلنا بان هذه النزعة ((الحلفائية)) تنتشر في كل مجتمع ديني تسيطر فيه مبادئ الدين وتبث منه تعاليمه.

---

(37) يقول الجاحظ في هذا الصدد: أن العلة في عصيان أهل العراق على الأمراء هي انهم أهل نظر وذووا فطن ثاقبة، ومع النظر والفطنة يكون التنقيب والبحث، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح والترجيح بين الرجال والتمييز بين الرؤساء واظهار عيوب الأمراء ... وما زال العراق موصوفا بقلة الطاعة وبالشقاق على أولى الرئاسة. (الجاحظ، البيان والتبيين، ج2 ، ص94).

ومن الملاحظ أن كل مدينة يكثر فيها رجال الدين ينتشر فيها ايضا ازدواج الشخصية على درجة كبيرة. ذلك لان الإنسان في هذا المجتمع مضطر أن يكون دينياً في ناحية من حياته ودنيوياً في ناحية أخرى.

ورجل الدين عادة يحترف بث التعليم الدينية، فهو يبثها قولاً ويقبض على ذلك أجراً؛ ولكن هذا الأجر يدفعه في الغالب أناس بعيدون عن تعاليم الدين في أعمالهم. ورجل الدين يضطر إذن أن يجاري هؤلاء فعلاً ويناقضهم قولاً، وكثيراً ما يقع في مأزق حرجة للغاية نتيجة هذا التناقض ... ولا حول ولا قوة إلا بالله ...

ولو درسنا المجتمع العراقي في العهد العثماني الذي ناء بعبئه أهل العراق عدة قرون لوجدنا من صور التصادم الحضاري ونزاع القيم شيئاً عجباً. فقد كانت الحكومة المركزية آنذاك ضعيفة كل الضعف سيما في العهد الأخير منه، فهي كانت لا تستطيع أن تحمي مظلوماً أو تردع ظالماً، وكان دأبها جباية الضرائب وانماءها على حساب الضعيف والمسكين. وقد أدت هذه الحالة إلى انتشار الأساليب العشائرية في سبيل حماية الأرواح وضبط الأمن.

ومما يؤثر عن ذلك العهد المتأخر أن كثيراً من المدن العراقية حاولت أن تنظم نفسها على أساس عشائري فتنتخب شيوخاً لها وتطالب بالثأر ... وما إلى ذلك من أساليب عشائرية. وقد دعى هذا الوضع إلى انتشار القيم البدوية في المجتمع العراقي بشكل فضيع،

فأصبح الفرد العراقي شديد التمجيد للقوة كثير التباهي بها متعصبا لمدينته أو محلته كما يتعصب البدوي لقبيلته في الصحراء.

ويقال أن كثيرا من رؤساء المدن كانوا يحاولون أن يكونوا لصوصاً يسطون على الدور ليلا أو قتلة سفاكين ذلك لكي يقال عنهم (انهم رجال ليل) فيجلبوا لأنفسهم بذلك المكانة اللائقة في المجتمع وأني اعرف شخصيا رئيسا من رؤساء العهد القديم كان غنيا وافر الغنى ومع ذلك كان يتنكر ليلا فيذهب إلى السطو وأعمال البطولة الليلية، وبدا كأن الناس يحترمونه ويخافونه.

وعلى كل حال فان انتشار هذه القيم البدوية في المجتمع العراقي قد أضاف إلى ازدواج الشخصية عنصرا جديدا. فان هذا البطل الذي يسطو على الدور ليلا كان مضطرا أن يستجيب للمثل الدينية في النهار. وقد تراه نهارا يلبس الوقار والفضيلة ويذهب إلى المسجد متعبدا راجيا من الله أن يدخله الجنة، ناسيا أعماله الليلية وما جنته يداه فيها، كأن ما يعمل في الليل لا دخل له بأعمال النهار.

سيداتي سادتي:

بعد هذا التحليل الحضاري الذي تابعناه في التأريخ متسلسلا منذ أيام السومريين فالعباسيين فالعثمانيين، نتحول نحو التحليل الاجتماعي؛ وهنا أيضا نجد عاملا آخر يؤدي إلى الازدواج في شخصية الفرد العراقي.

قلنا أن أهم عامل في تكوين الشخصية البشرية بصورة عامة

هو ما يسميه علماء الاجتماع بالجماعة الأولية؛ وهـــي فـــي الحقيقـــة البودقة التي تنصهر فيها شخصية الفرد وتصب في قوالبها النهائيــــة. ولنأت الآن إلى فحص هذه الجماعة الأولية كما نراهـــا فـــي العـــراق وندرس أثرها في تكوين الشخصية العراقية. أني بعد دراسة طويلــــة للجماعة الأولية في العراق لاحظت فيها ظاهرة غريبة قلما نرى مثـــلاً لها في البلاد الأخرى. وهي ظاهرة لا نفطن نحن لوجودها عادة لأننـا قد تعودنا عليها واعتبرناها طبيعية، أما الأجنبي فقـــد يلمـــح آثارهـــا بوضوح.

وقد يلاحظ الباحث في العائلة العراقية ظاهرة يمكـــن أن نطلـــق عليها بظاهرة ((التجزء))، واقصد ((بالتجزء)) هو ما نلاحظ من انقســـام في أسلوب الحياة بين الرجل والمرأة والطفل، فإذا علمنا بـــأن العائلـــة مكونة في جوهرها من عناصر ثلاثة الرجل والمرأة والطفـــل وجدنـــا بان كل واحد من هذه العناصر الثلاثة قد اخذ جانبـــاً أو مجـــالاً مـــن الحياة يختلف عن جانب الآخر. فالمرأة مجالها البيـــت لا ينبغـــي أن تحيد عنه والرجل مجاله في أوقات فراغه المقهى، بينما ذهب الطفـــل إلى الزقاق يتسكع فيه مع أقرانه.

قل أن نجد في هذه الدنيا مجتمعاً تجزأت فيه العائلـــة مثـــل هـــذا التجزء البليغ. العراق مشهور بمقاهيه، وهي على كثرة عددها تغـــص بالرجال. ففي أصغر قرية كما في اكبر مدينـــة فـــي العـــراق تجـــد المقاهي منتشرة انتشاراً فضيعاً. ولعل هذه الظاهرة ســـببها حجـــاب

المرأة أولاً وتعالي الرجل على المكوث معها في البيــت ثانيــاً. فقـد نشأت عندنا قيم تجعل من المرأة جنساً اقل منزلة من الرجل واضعـف عقلاً بحيث يشعر الرجل إزائها بالتعالي والكبرياء. فإذا علـم النــاس برجل يكثر من المكوث في بيته مع امرأته وأولاده اتـــهم بـــالتخنث، ولدينا من الأمثال السائرة عدد لا بأس به يدل على انتشار هــذه القيـم الاجتماعية بيننا.

ولعل هذه القيم قد جاءتنا من البداوة، فالمجتمع البدوي كمــا قلنــا مجتمع غزو وحرب، والرجل وحده هو الذي يقــوم بمهمــة الحــرب والنضال؛ أما المرأة فتعتبر مهمتها اخفض درجة من مهمـــة الرجـل ولذا ينظر إليها بعين الاستصغار والمهانة. والبدو يطلقون على مــن يكثر من مجالسة النساء لقب ((زير النساء)) وهو لقب يصعـــب علــى البدوي تحمله. انه إذن مضطر أن يقضي اغلب أوقاته فـــي ديــوان الشيخ ليتحدث هناك مع أقرانه أحاديث البطولـــة وأقــاصيص الغــزو والشجاعة.

ولقد اقتبسنا هذه العادة من البداوة حيث تحول ديــوان الصحــراء إلى مقهى في المدينة وبذا أصبح الرجل لا يكاد يلقف طعامه في بيتـــه حتى يخطف عباءته ويذهب إلى المقهى، وهو إذن لا يرى إلا ســاعات الطعام والمنام وهي ساعات غير مجدية.

أما المرأة فقد تعودت أن تقبع في بيتها وان تعتقد بفضـــل ذلــك وبدلالته على العفة والشرف، فهي قد لقنت منذ الطفولة على أن تكــون

محجبة لا تخرج من البيت إلا عند الضرورة القصوى. وأنا اعــرف مدينة عراقية يفخر أهلها بان نساءهم لا يشاهدون فــي الشــوارع إلا نادراً؛ فإذا اضطرت إحداهن على الخروج حاولت أن تتجنب الطــرق المزدحمة لكي لا يرى هيكلها المحجب على أية حال.

ولهذا تجد البيت العراقي قد اصبح عالماً قائماً بذاتــه لــه قيمــه الخاصة به وقواعده التي تختلف عن قواعد العــالم الرجــالي تمامــاً. وهذا بلا ريب يساعد على نمو الازدواج في شخصيتي الرجل والمـرأة معاً. إذ أن كلاً منهما قد يتأثر بقيم الجنس الآخر بصوره شــعورية أو لا شعورية بالإضافة إلى قيمه الخاصة بجنسه، وبدا ينشأ في شـخصيته نظامان متناقضان من القيم. وقد نلاحظ في رجالنا ونسائنا كثيراً مــن المتناقضات التي يمكننا أن نعزوها إلى هذا الانفصال الشديد بين عــالم المرأة وعالم الرجل.

وبالإضافة إلى ذلك نجد أن هذا الانفصال يؤدي في كثــير مــن الأحيان إلى الانحراف الجنسي. فقد ثبــت علميــاً بــان الانحــراف الجنسي في الغالب اكتسابي، يسببه انفصال المرأة عن الرجل كما هــو الحال في الجنود الذين يظلون في ميدان الحرب مدة طويلــة بعيديــن عن النساء، وكذلك في البحارة والسجناء وغيرهم من لا يتصل بــالمرأة إلا قليلاً (38).

وفي العراق نجد الانحراف الجنسي منتشراً بسبب هذا الانفصــال الفضيع بين الرجل والمرأة، ولهذا نجد اغلب أغانينا تخاطب الحبيــب

Elliott & Merrill, Social & Disorganization, p. 197. (38)

بلفظ المذكر – الأمر الذي يندر أن نلاحظـــه فـــي البـــلاد الاخـــرى. واغلب أشعارنا الغزلية نؤاسية أي هائمة بنفس الحب الذي هـــام بـــه المنكوب أو نواس. ولسوء حظنا أن العراق كان مهد الحجـــاب لأول انتشاره في الحاضرة الإسلامية وكذلك كان مهبط الوحي علـــى أبـــي نواس.

هذا ولا يخفى أيها السادة أن المنحرف جنسياً يـــزداد فيـــه دواء ازدواج الشخصية، فهو شخص يضمر غير مـــا يظـــهر، وهـــو إذن مضطر أن يتظاهر أمام الناس بغير ما في قرارة نفسه، ولذا تجد لـــه شخصيتين، شخصية يتظاهر بها أمام الناس وشخصية أخرى يســـعى بها وراء لذاته المنحرفة.

وبعد بحثنا في وضع الرجل والمرأة نرجع إلى العنصـــر الثـــالث وهو الطفل، فنراه يلعب في الزقاق وتنمو شخصيته فيه. لقـــد لاحـــظ علماء الاجتماع في أمريكا أن عصابـــات الإجـــرام المشـــهورة فـــي شيكاغو وغيرها من المدن الكبيرة سببها قلة العنايـــة بالأطفـــال فـــي بعض الأحياء الفقيرة هنا لك. فقد وجد بان اكثر أفـــراد العصابـــات نشأوا في أحياء فقيرة حيث تكون الدور ضيقة ومزدحمة بســـكانها إذ يضطر الأطفال على الخروج إلى الأزقة يلعبون فيها ويؤلفون الزمـــر المحلية التي هي في الحقيقة خمائر لنمو العصابات الكبيرة فيما بعد.

والغريب أن أطفالنا في العراق يخرجون إلى اللعب فـــي الأزقـــة سواء أكانت بيوتهم ضيقة أم واسعة، فبيوتنـــا بنيـــت لتصلـــح لحيـــاة

KMH

الحجاب، فهي متكانفة على نفسها مستورة من جميع نواحيها، وليس فيها من الأشجار والأزهار إلا قليلاً. فالطفل إذن مضطر أن يخرج إلى الزقاق ينشد فيه اللعب والمرح، وقد تحدوه في ذلك أمه لأنها تريد أن تتفرغ إلى أعمالها البيتية من ناحية والى قبول زائراتها من ناحية أخرى.

وهكذا يجد الطفل العراقي مجالاً رحيباً في الأزقة، فيؤلف فيها مع أقرانه وأبناء جيرته ما يشبه العصابات. فإذا كانت روح العصابة في أمريكا تنمو في الأحياء الفقيرة من المدن الكبرى فقط، فإنها في العراق تنمو في القرى والمدن معاً وفي الأحياء الفقيرة والغنية على السواء.

وإننا لا نذيع سراً إذا قلنا بان القيم التي تسود بين الأطفال في الأزقة كثيراً ما تشبه سنة الغابة، فهي قيم تدور حول القوة وحول استعمالها في كل سبيل. أن الأطفال في الزقاق، حيث لا يشرف عليهم مشرف من الكبار، تنمو فيهم قيم التفاخر بالقوة والتباهي بها وحب السيطرة وشدة العصبية المحلية.

أن مدار التباهي في الزقاق ينحصر في الاستقطاب الذي يعبر عنه بكلمتي (القوي والضعيف) أو بعبارة عامية: بلفظتي (السبع والمخنث). فكل طفل يحاول أن يشتهر بصفة القوة ويبعد عن نفسه شبه الضعف. انه لا يريد أن يوصم بوصمة التخنث، فهو بطل يحاول أن يظهر بطولته بالاعتداء على غيره ممن هو اضعف منه

بدنا أو اقل أعوانا.

وكذلك تنمو في نفس الطفل العصبية المحلية، فهو متعصب لأبناء محلته، وعدو لأبناء غيرها. وقد تتحول هذه العصبية المحليـــة عنـــد الكبير إلى عصبية عشائرية أو بلدية أو طائفية أو دينية أو ما أشـــبه، وهكذا ينشأ العراقي وهو شديد التعصب لدينه مثلا بينما هو لا يعـــرف من واجبات الدين شيئا.

ولكن هذه النزعة الزقاقية في الطفل العراقي سرعان ما تختفـــي في الكبير تحت ستار من الوقار المصطنع. فالطفل العراقي لا يؤلـــف في كبره عصابة كما يفعل في أمريكا. لان الـــروح العصابيـــة فيـــه تختفي، حيث تكمن في عقله الباطن ويشرع الطفل آنـــذاك بالتظـــاهر بمظاهر الأدب أو الدين أو الخلق الفاضل.

نحن نعود أطفالنا منذ صغرهم على أن يتظاهروا بالوقار والرزانـــة أمام الكبار (39) وبذا تنشأ فيهم شخصيتان: شخصية للزقاق، وأخـــرى للظهور أمام الناس. فالأبوان في العراق كثيرا ما يؤنبان طفلـــهما إذا بدرت منه بوادر لا تليق بمعشر الكبار، فـــهو إذن يحـــاول أن يكـــون عاقلا خلوقا ساكنا إذا ذهب مع أبيه إلى المقهى، ولكنه لا يكاد يرجـــع إلى الزقاق حتى تراه قد خلع عنه ذلك القناع المصطنع الذي تقنع بـــه في صحبة أبيه. فإذا كبر هذا الطفل، دأب على أن يقول ما لا يفعـــل، وان يتحمس لما لا يعتقد به، وان يعظ غيره بغير ما يعظ به نفسه.

---

(39) متى عقراوي ، العراق الحديث، ص248.

فهو قد يصبح نقادا من الطراز الأول، مشاغبا يكتشف عيوب الناس من غير أن يكتشف عيبه، لا يرضى عن أي شيء يأتي به غيره مهما كانت درجة قربه من الكمال عظيمة.

سيداتي سادتي:

وفي هذه النقطة نتحول من العامل الاجتماعي في تكوين شخصية الفرد العراقي إلى العامل النفسي، وهذان العاملان، الاجتماعي والنفسي، لا ينفصلان في الواقع. إذ أن كل ظاهرة اجتماعية لها جانب نفسي، كما أن كل ظاهرة نفسية لها جانب اجتماعي.

يقول بعض علماء التحليل النفسي: ((أن كثيراً من الشقاء الذي ينهش في نفوس بعض الأفراد، ينشأ من انهم رسموا لأنفسهم مستوى شاهقاً رفيعاً ... إذا ارتقى [أحدهم] إلى منصب فلا يزال يرى انه في مركز اقل بكثير مما هو جدير به؛ وكلما غمرته نعمة شعر بأنه أحق بما يفوقها درجات. انه لا يستطيع أن يتذوق طعاماً للسعادة والرضا، بل انه ليشع الشقاء على غيره، وينشر البؤس والتعاسة بينهم، بانتقاده المستمر لسلوكهم وتصرفاتهم مهما كانوا على خلق كريم. وقد يصبح هذا الشخص عصابياً .. دائم السخط على المجتمع، لا يجد فيه الفضيلة التي يهواها ويتعشقها ويعبدها، دون أن يمارسها في الغالب؛ نافراً من الناس، لأنه يشعر بأنهم أقل منه شأناً بكثير، وأحط من أن يمتزج بهم؛ أنانياً يعمل على أن يحقق رغباته الخاصة، إذ يراها ارفع الرغبات وأسماها، وأجدرها بالتحقيق دون سواها. ويرى نفسه في

ذاته المثلى اعلم وافضل وأرقى من في الوجود، بينما هو قد يكون في ذاته الواقعية اجهل وارذل وأحط من في الوجود))(40).

يفسر الباحثون هذه الظاهرة النفسية في بعض الأفراد على إنها امتداد لنوع المعاملة التي عاملهم بها والداهم عندما كانوا أطفالاً صغاراً ((فبعض الوالدين يتطلبان من الطفل الصغير الكمال في كل شيء، في أعماله وسلوكه وكلامه، ويحاسبانه على كل هفوة تصدر عنه حساباً عسيراً. وينظران إليه كما لو كان راشداً متفهماً مكتمل العقل ناضج القوى ...))(41).

وأني اعتقد بان هذه التربية المتشددة المتزمتة تكثر في العراق؛ ونظرة واحدة إلى أسلوب التربية في الكتاتيب المحلية التي كانت، ولا تزال، منتشرة في أرجاء العراق، تكفي لتأييد هذا القول. فالوالد يأتي بطفله إلى أحد الكتاتيب ويقول لشيخه: ((هذا ولدي، خذه إليك فأدبه .. اللحم لك والعظم لي)). ويبدأ الشيخ يفرض على الطفل فروضه المتعددة. فالطفل يجب أن ينكب على قراءته وكتابته، منكساً رأسه، قاطعاً أنفاسه، لا يلتفت يمنة ويسرة؛ ومن نجح في هذا فهو طفل عاقل أديب، أما من اخفق فالويل له. والطفل إذن مضطر أن يكظم غيضه ويكبت عواطفه مدة الدراسة حتى إذا خرج بعد انقضاء المدة، ذهب ثائراً متمرداً، يعتدي على هذا ويضر ذلك، ويخطف تلك –

---

(40) محمد كامل النحاس، سيكولوجية الضمير، ص38 – 39.

(41) نفس المصدر ، ص38.

يجد في ذلك بعض التنفيس عما آلم به من كبت طويل.

وعلى هذا المنوال ينشأ الطفل وقد نمت فيه شخصيتان: شخصية مؤدبة خاضعة، وشخصية ثائرة معتدية. والملاحظ أن مدارسنا الحديثة لا تزال تحتوي على بقايا من تلك الروح القديمة: روح التزمت والكبت والإشادة بوقار العلم وأدب الدراسة. وكثيراً ما يطالب التلميذ في هذه المدارس بأن يحترم مدرسه غاية الاحترام وأن يكون له عبداً على حسب المبدأ القائل: ((من علمني حرفاً صيرني عبداً)). وهكذا يتعود الطفل، أمام المدرس على عادات تختلف عن تلك التي يتعودها إذا خرج من المدرسة واكتنفته جدران الزقاق.

وينبغي هنا أن نتذكر ما قلنا آنفاً عن الشخصية بأنها محاولة من الإنسان للتوازن بين رغباته الطبيعية العارمة، وقواعد المجتمع التي يتبناها ضميره. والتوازن بين هاتين القوتين المتعاكستين صعب كل الصعوبة؛ وكثيراً ما يفشل الإنسان في نوال هذا التوازن أو في ضبطه مدة طويلة.

وهذا هو ما دعى أصحاب التربية الحديثة إلى القول بتسهيل القواعد المفروضة على الطفل وإعطاء المجال لرغباته الطبيعية في أن تتحرر وتترعرع ضمن حدود معينة. أن شدة التربية والتزمت في التأديب كثيراً ما يؤدي إلى نمو خليقة الرياء والنفاق فيه حيث ((ينشأ الطفل مرائياً منافقاً، يقول ما لا يعنى ويعنى غير ما يقول؛ ويمارس ما لا يؤمن به، ويؤمن بما لا يمارسه ...))(42).

---

(42) نفس المصدر ، ص54.

يمكن تشبيه الرغبات الطبيعية في الإنسان بالنهر الجارف، فهو إذا عرقل سيره ووضعت العقبات في سبيله، طغى على ما جاوره من الأرض وأهلك الحرث والنسل[43]. وهذا لا يعني إننا ينبغي أن نترك الطفل حرا، فيما يعمل طبق رغباته الطبيعية، تمام الحرية. الرغبات الطبيعية، بالأحرى، يمكن السيطرة عليها والاستفادة من طاقتها الكامنة، كما يستفاد من تيار النهر الجارف، إنما الضروري أن نتفهم طبيعة هذه الرغبات وقوانين سيرها وقوة تيارها بحيث نستطيع أن نجاريها من ناحية ونسيطر عليها من ناحية أخرى.

لقد ظن والدونا انهم يقدرون على شبك شخصياتنا كما يشاؤون، فأخذوا يحاولون تقييدها بما صنعوا من فروض وقواعد هي أشبه بالعقبات التي توضع في طريق النهر بالسدود والخزانات والمرافق النافعة الأخرى.

ولهذا اخذ الطفل العراقي يرزح تحت عبء هذه العقبات المفروضة عليه ويحاول أن يتمرد عليها عن طريق الانحراف والمراوغة. فهو إذن يتظاهر باحترام المثل العليا التي لقنه إياها مدرسوه وأولياء أمره، ولكنه يراوغ عنها فعلا ويختلق لنفسه شتى المعاذير والتبريرات في سبيل التنكب عنها. انه يخدع نفسه قبل أن يخدع الآخرين.

---

(43) الغريب أن أنهارنا كنفوسنا تغطي على ما حولها في كثير من الأحيان.

سيداتي سادتي:

وعلاوة على هذا التزمت التربوي، نجد عاملاً آخر يعمل في نفس الطفل ويؤدي إلى عين النتيجة: هو عامل انفصال الرجل عن المرأة.

فالطفل عندما يبلغ الحلم يرى المرأة قد حجبت عنه. انه مشتاق إليها راغب فيها ولكن التقاليد فرضت عليه التظاهر بعكس ما يبطن. انه مضطر أن يكبت ميوله الجنسية العنيفة، ثم يدعي انه عفيف لا يميل إلى المرأة ولا يحب التقرب منها. أن هذا يؤدي، كما قلنا، إلى شيوع الانحراف الجنسي؛ وهو يؤدي أيضاً إلى ظاهرة أخرى من الممكن تسميتها: بالانحراف النفسي.

يقول فرويد واتباعه من علماء التحليل النفسي أن الإنسان إذا احب شيئاً حباً شديداً وكبت هذا الحب في عقله الباطن، فانه قد يلجأ في سبيل التنفيس عن هذا الكبت، إلى الشغب وشدة الانتقاد والاعتراض ضد نفس الشيء الذي يحبه. انظر إلى سلوكنا حين نتعصب ضد أشياء أو نستعرض أشياء نكرهها ولا ننفك نشنع عليها، فان أخيب الظن إننا في عقلنا الباطن نحس ميلاً مكبوتاً نحو هذه الأشياء نفسها كما يقول برنارد هارت(44).

ويمكن الاستنتاج بأن الذي ينتقد غيره انتقاداً عاطفياً لاذعاً، إنما هو ينفس بذلك عن عاطفة مكبوتة؛ وكثيراً ما يذم أحدنا شيئاً يراه في

---

(44) انظر سلامة موسى ، عقلي وعقلك، ص: 57.

غيره فإذا حللنا نفسه وجدناه انه يحب ذلك الشيء حباً جماً، بيـــد انـــه عجز عن نواله فيشرع عن ذلك بانتقاد من ناله وبالتهجم عليه تنفيســـا عن حرمانه المكبوت(45).

يقول ويلز أن أولئك الذين يصخبون ضد الاســـتحمام المختلـط على الشواطئ أو يعارضون في اتخاذ النساء ملابـــس لا تتفـق مـــع الحياء على زعمهم، قلما يكونون من الحكمـــاء الذيـــن اســتطاعوا أن يضبطوا رغباتهم في تعقل. وهم في العادة بعض أولئك الذين كبتـــوا غرائزهم العنيفة وكأنهم على إحساس غامض بان هذه الدوافع العارمـة توشك أن تجمح بهم وتقذفهم في مهاوى خلقية سحيقة(46).

إن مشكلة الكبت، والحق يقال، مشكلة عويصـــة يعـــاني الفـــرد العراقي منها ما يعاني، وتتعقد شخصيته بسببها تعقدا لا يستهان به.

إن العراقي مشهور بكثرة انتقاده لغيره. تقـــول ســـيدة أمريكيـــة زارت العراق ذات يوم: بأن العراقي بارع في اكتشاف العيـــوب فـــي غيره وماهر في عرضها على المستمع شيئا فشيئا. والحقيقة أن كـــلا منا ينتقد غيره، وكل منا ينسب خراب الوطن إلى الآخرين ناسيا انـــه هو مساهم في هذا الخراب العام قليلا أو كثيرا. والغريب أن موظفـــي الحكومة ينتقدون الحكومة كأن الحكومة مؤلفة من غيرهم. وكل فـــرد من الناس ينتقد الناس كأنه ليس من الناس.

---

(45) انظر كامل النحاس، نفس المصدر، ص71.

(46) ويلز، علم الحياة، ص: 911، مقتبسة من سلامة موسى، عقلي وعقلك،ص:57.

والواقع أن كلاً منا مبتل بنفس الداء الذي يراه في غيره. فالموظف الصغير ينتقد الموظف الكبير على تأثره بالوساطة مثلاً بينما هو نفسه يتأثر بها أيضاً - ولكن على نطاق أضيق. يسرع في انجاز معاملة تعود لصديق، أو لحامل بطاقة من صديق، ثم يرفع صوته بعد ذلك في ذم الواسطات وشرح أضرارها. وقل مثل هذا عن عامة الناس، فرجل الشارع يشتكي عادة من ما يجده في الناس من كذب ونميمة وغش وغيبة ولكنه ينسى انه هو أيضاً يكذب وينم ويغش ويغتاب. انه ينجرف مع التيار ثم يشتكي منه.

أن هذه الظاهرة النفسية المنتشرة في العراق يمكن تفسيرها بما في عقولنا الباطنة من دوافع مكبوتة تحاول التنفيس: فالدافع الجنسي مكبوت لشدة الحجاب، ودافع القوة مكبوت لسيادة الاستعباد في العراق منذ مئات السنين، ودافع الحياة مكبوت لما توالى في العراق من مجاعات وأوبئة وحروب وفيضانات ...(47). وبدا أصبحت في نفوسنا عقد جمة أو كوامن مكبوتة تحاول الظهور تحت قناع الانتقاد أو الشغب أو شدة الاعتراض. فالمنتقد منا لا يهمه أي شخص ينتقده. هو يريد أن ينفه عن مكبوتات نفسه، فيوجه الضربات هنا وهناك. هدفه في الضرب وليس في المضروب!.

---

(47) يتفق كثير من الباحثين أن أهم الدوافع البشرية ثلاثة: دافع الحياة ودافع الشهوة الجنسية ودافع القوة والشهرة؛ والظاهر أن هذه الدوافع عليها شيء لا يستهان به من الكبت في العراق.

وهذه الظاهرة تؤدي بلا ريب إلى زيادة الازدواج في الشخصية لان الانتقاد يأخذ غالباً صورة الحجة المنطقية والبرهان المثالي. والعراقي إذن ينتقد بأسلوب ويسلك بأسلوب، يناقض نفسه ولا يدري. انه يهاجمك ويشتمك لأنك في زعمه قد حدت عن بعض المثل العليا، ثم تراه عند الاستطاعة يقوم بنفس العمل الذي يشتمك عليه، وهو مرتاح الضمير كأنه لم يعمل شيئاً.

سيداتي سادتي:

وقبل أن ننتهي من بحث العامل النفسي في تكوين الشخصية العراقية، يجدر بنا أن نتطرق إلى نقطة في غاية الأهمية: هي ما للغة من اثر بليغ في هذا الأمر.

فلقد ابتلينا، في العراق وفي كثير من البلاد العربية الأخرى، بهذا الفرق الكبير بين اللغة الدارجة واللغة الفصحى: بين لغة الأعمال اليومية ولغة الكتابة والخطابة. وهذا عامل لا يمكن إغفاله في بحث الشخصية العراقية وكيف نشأت ظاهرة الازدواج فيها. فلقد أجمع كثير من العلماء بأن اللغة لها أثر كبير في التفكير. ولقد ذهب بعضهم بأن التكلم والتفكير شيء واحد، حيث أن التفكير، حسب قولهم، ما هو إلا لغة صامتة. ولقد أجريت بعض التجارب على حنجرة الإنسان عند تفكيره فوجد إنها تهتز كأنها تنطق مما يدل على وجود علاقة وثقى بين التفكير واللغة(48).

---

(48) انظر ودوورث، علم النفس، ص688 – 691.

KMH

ونحن قد تعودنا أن نتكلم بلغتين: وكأننا بذلك نفكر على اسلوبين مختلفين. فنحن في حياتنا الاعتيادية نتكلم باللغة العامية الدارجة، ولكننا لا نكاد نواجه حفلاً أو نكتب مقالاً نبدأ بالتحذلق باللغة الفصحى. وبهذا فنحن نتقمص شخصيتين ونفكر على نمطين. لقد أصبحت هذه عادة مالوفة لدينا بحيث لا نشعر بما نأتي به من التناقض فيها.

اللغة الفصحى لغة البرج العاجي – لغة رفع الفاعل ونصب المفعول به وجر المضاف إليه. وهذه امور لا تمس الحياة العملية مساساً كبيراً. أن حياة الواقع، التي يحياها عامة الناس ويعانون فيها ما يعانون من مشاكل وادواء، لا تنتفع من كون الفاعل مرفوعاً أو المفعول به منصوباً. إنها تتطلب لغة علمية بسيطة، تؤدي المعنى من غير التباس أو غموض.

أن اللغة الفصحى نشأت في محيط البداوة الذي تسود فيه قيم الحرب والحماسة، ثم ترعرعت من بعد ذلك في قصور الأمراء والمترفين. فهي لغة حماسة أولاً، ولغة بطر وقلة اشغال ثانياً.

لقد رعى اللغة الفصحى واكتشف قواعدها العويصة أناس كانوا يريدون أن يتقربوا إلى الأمراء والملوك بمثل ما كان يتقرب به المغنون وبائعو الجواري. فلم يكن الأمير يهتم باللغة الفصحى في إدارة أعماله؛ إنما كان يتفرغ لها، بعد أن ينتهي من ظلم الناس أو العدل بينهم، كما كان يتفرغ لقصيدة رنانة في المديح أو أغنية

مثيرة في الغزل.

ولهذا السبب كان الأدب والشعر وغيرهما من أفانين اللغة الفصحى لا يهتم بها عادة عوام الناس. فهي كانت محصورة بين جدران بعض القصور الباذخة المملوءة بالجواري(49). هذا كانت اللغة تنمو إذا شجعها الأمراء وتنافسوا في تحبيذها، وتخمد إذا ألتهى الأمراء عنها بملاه أخرى.

ولقد رأينا مثلاً حسياً على هذا في حياة المرحوم الشيخ خزعل أمير المحمرة سابقاً. فقد كان هذا الأمير، الساعي وراء اللذة بشتى صورها، مقصداً لكثير من الشعراء والخطباء والأدباء الذين كانوا يحسنون اللغة الفصحى ولا يجدون سوقاً لهم بين عامة الناس. فهؤلاء كانوا يهيئون القصائد الرنانة في مديح الشيخ، ويقدمون لها بديباجة مشهية من الغزل، ثم يشدون الرحال إلى المحمرة. وقد كان في المحمرة آنذاك عالمان منفصلان: عالم اللغة الفصحى التي كانت تزخر بتجميد المثل العليا والمبادئ السامية، وعالم اللغة السوقية التي كانت تزخر بمشاكل الحياة وبزفرات الأنين من ظلم الشيخ عفى الله عنه.

ونحن اليوم في العراق مبتلين بنفس هذه الظاهرة ((الخزعلية)): يخطب خطبائنا ويكتب كتابنا مقالات مملوءة بالرنين الشعري وزخارف

---

(49) والغريب أن الجارية التي كانت تحسن اللغة الفصحى والأدب والشعر كانت تباع بثمن باهظ. حيث كانت اقدر على الامتناع والمؤانسة.

النحو الذي هو اصعب نحو خلقه الله. وقليلاً ما تجد في هذا الرنين والبهرجة دراسة واقعية لمشاكلنا المتعددة. فالخطيب قد يهمه بالدرجة الأولى الإتيان بالألفاظ الرنانة ورفع الفاعل ونصب المفعول به اكثر مما يهتم بوصف الواقع وصفاً دقيقاً.

ولا يعني هذا أن كاتب هذه السطور خالي من هذا الداء الذي نشتكي منه. فنظرة واحدة إلى أسلوب هذه المحاضرة وما فيها من تقيد بقواعد النحو والصرف يكفي للدلالة على إننا جميعاً في الهواء سوا.

ولقد سمعت قبل أن ألقي هذه المحاضرة، أن أحد المحاضرين قبلي فشل في محاضرته لأنه لم يعن بقواعد النحو والصرف وأفانين اللغة الفصحى. فالمستمع العراقي بصورة خاصة، والعربي بصورة عامة، قد يستهجن خطبة إذا كانت غير رنانة، أي غير نحوية أو فصيحة، رغم ما فيها من فوائد علمية عظيمة. انه إذن داء عام توارثناه كما توارثنا غيره من أدوائنا الراهنة، وهو سبب كبير من أسباب إزدواج الشخصية فينا.

لقد كان مثل هذا الفرق بين اللغة الدارجة والفصحى في أوروبا في العصور الوسطى؛ وقد ثار الأوربيون على هذا الازدواج في بدء نهضتهم الحديثة، فوحدوا بين اللغتين تقريباً ولم يبق الآن من الفرق إلا جزء ضئيل هو ذلك الفرق الطبيعي بين لغة المثقفين ولغة العامة

في كل زمان ومكان، وبهذا سلمت نفوسهم من الازدواج إلى حد كبير.

*****

والخلاصة أن الفرد العراقي مبتل بداء دفين هو داء الشخصية المزدوجة. وقد يسأل سائل: ما هو العلاج الذي ترتأيه لهذا الداء؟ : إننا ما دمنا قد عرفنا الأسباب التي تؤدي إليه فقد اتضح إذن وصف العلاج له.

لعلي لا اخطأ إذا حصرت العلاج بأنواعه الثلاثة:

أولاً: إزالة الحجاب عن المرأة ورفع مستواها وإدخالها في عالم الرجل لكي تتوحد القيم ويتشابه الرجل والمرأة فيما يفهمان وما ينشدان من مثل وأهداف.

ثانياً: تقليل هذا الفرق الكبير بين اللغة الدارجة واللغة الفصحى. تحدثوا كما تخطبون واخطبوا كما تتحدثون. اتركوا ما ابتدع سيبويه ونفطويه، والحريري والهمذاني من لغو باطل وقيود لا فائدة منها.

ثالثاً: هيأوا للأطفال ملاعب أو رياضاً حيث يتكيفون فيها للحياة الصالحة تحت إشراف مرشدين أكفاء. علموهم بأن القوة التي تحكم العالم اليوم ليست هي قوة فرد إزاء فرد أو سيف إزاء سيف. إنها قوة العلم والصناعة والنظام فمن فشل في هذه أن له أن يفشل في معترك الحياة ... رغم ادعائه بالحق وتظاهره بالمثل العليا.

والسلام.

ذيل

لقد اعترض علي بعض من سمع المحاضرة باني لم أتعرض، في بحثي للعوامل التي أدت إلى ازدواج الشخصية في العراق ، إلى العامل الجديد الذي بدا يعمل في المجتمع العراقي منذ تشكيل الدولة العراقية حتى اليوم . لا نكران أن العامل هام وجدير بالبحث ، ولكنه معقد لقرب عهدنا به ، ولذا فان من الصعب بحثه بحثا وافيا في هذا المجال الضيق الذي لحسن نيه. ولعلني أوفق في يوم آخر الى بحثه والإسهاب فيه . وقد يكفي الآن أن اذكر عنه نقطة واحدة في شيء من الاختصار .

وربما كنت غير مخطئ إذا قلت ملخصا : أن ظروف العراق الاستثنائية ، التي جابهته بغتة عند تشكيل دولته ، خلقت فيه طبقةً متحذلقة مغرورة ــ هي طبقة (الافنديه) .

لا ريب : بأن طبقة (الافنديه) كانت موجودة في العهد العثماني، ولكنها كانت آنذاك قليلة العدد ، متعالية على الشعب ، وتعتبر ــ نفسها من صنف آخر غير صنف العامة والسوقه .

أما بعد تشكيل الدولة العراقية، فقد بدأت طبقة (الافنديه) بالضخم على نطاق واسع، وأصبحت تستوعب أفرادا من أبناء العامة لم يكونوا يحلمون انهم في يوم من الأيام سيصبحون من الطبقة الحاكمة ..

أن هذا الصعود المفاجيء من أبناء العامة إلى مراتـــب الحكـام والضباط، نفخ فيهم شعورا زائفا بالعظمة أو العبقرية أو المقدرة علـى المعجزات. فهذا مثلا ابن حمال أو بقال قد يصير بين عشية وضحاهـا ضابطا في الجيش يأخذ الجنود له التحية فـي الشـوارع، أو موظفـا يأمر وينهي في اناس كان يعتبرهم قبلا من العظماء، وإذا به يشعر انـه اصبح اعظم العظماء.

أن النجاح المفاجيء يؤدي عادة إلى الشعور بـالمقدرة الخارقـة وإلى البطر. ولهذا نجـد أغنيـاء الحـرب لا يحتملـون، وأصحـاب الشهادات في مجتمع جاهل لا حد لتحذلقهم وغرورهم. النجاح المتـدرج الذي تكتف طريقة المصاعب هو الذي ينتـج فـي الغـالب العبـاقرة والعظماء الحقيقيين.

ومن المؤسف حقا أن الدولة العراقية عند تأسيسها لجأت اضطـرارا" إلى تعيين كثير من الموظفين الذين لا يستحقون، في بلاد أخـرى، أن يكونوا كتاب عرائض.

وقد مر على البلاد زمان لا يكاد يتخرج فيه الشاب مـن الدراسـة المتوسطة أو الثانوية،حتى يجد مجاله في دوائر الحكومة رحيبا".

فهو قد تعلم شيئا من الفباء العلوم، ثم رأى نفسه قد اصبـح مسـموع الكلمة، وبدا فهو لم ير مانعا يمنعه من الدعـاوى العريضـة ووضـع الخطط لتشييد إمبراطورية أو إعادة مجد الأجداد. وكثيرا ما نجده يلجـأ إلـى اللغـة الفصحـى يتنطـع بـها عـن آمالـه الإمبراطوريـة.

وجدنا هذا واضحا في بعض ضباط الجيش العراقـــي الباســل قبيــل الحرب العالمية الثانية. ولهذا السبب اصبح كثير من موظفينا يعيشـــون في الأبراج العاجية.

فهم لا يهمهم أن يعاني الشعب من أدواء الجوع والمـــرض والجهل ما يعاني، لأنهم مشغولون بتزين شارع الرشيد حتى لا يتقزز منه السواح، وفي وضع الخطط لفتح العالم ..

أن طبقة (الافنديه) عندنا يكثر فيهم ازدواج الشخصية؛ فهم في الدائـــرة أو النادي فلاسفة طوبائيون، وفي غير ذلك أناس عـــاديون ...مثلـــي ومثلك .

******

وختاما أقول : إن هذا الازدواج الذي حـــاولت أن اكتشـــفه فـــي شخصيه الفرد العراقي، على اختلاف طبقاته، لظاهرة اجتماعية تدعـــو إلى التأمل العميق. وأظن أننا سنظل حيـــارى فـــي مجـــالات الحيـــاة الجديدة، مترددين لا نعمل شيئا، إذا لم نلتفـــت إلـــى هـــذه الظـــاهرة، ونعترف بوجودها، ونحاول معالجتها علاجا جديا . فما دامت هـــاتيك الهوة موجودة بين ما نعمل وما نفكر، وما دمنا ندعى شيئا ثـــم نفعـــل غيره، فإننا سوف نبقى سادرين فيما نحن اليوم فيه من قلق وارتبـــاك لا حد لهما، هو داء لابد له من دواء !

حول الأخطاء المطبعية

وقعت أخطاء مطبعية في هذا الكتاب على الرغم من شدة العناية بالتصحيح، وهي أخطاء نأمل أن يفطن القارئ إليها ويصححها بنفسه.

*****

كتب المؤلف

(1) شخصية الفرد العراقي بغداد 1951
(2) خوارق اللاشعور " 1952
(3) وعاظ السلاطين " 1954
(4) مهزلة العقل البشري " 1955
(5) أسطورة الأدب الرفيع " 1957
(6) الأحلام بين الحلم والعقيدة " 1959
(7) منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته القاهر 1962
(8) دراسة في طبيعة المجتمع العراقي بغداد 1965
(9) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث 8/1 بغداد من 1969 إلى 1979

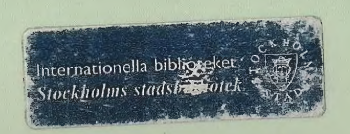
الوردي في سطور

- ولد في الكاظمية في عام 1913.
- تخرج من جامعة بيروت الأمريكية بدرجة شرف عام 1943.
- حصل على شهادة الماجستير في علم الاجتماع من جامعة تكساس الأمريكية في عام 1948.
- حصل على شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع من جامعة تكساس الأمريكية في عام 1950.
- عين مدرساً لعلم الاجتماع في كلية الآداب (بغداد) في عام 1950.
- رُقّي إلى رتبة أستاذ مساعد في قسم الاجتماع في عام 1953.
- رُقّي إلى رتبة أستاذ في علم الاجتماع في عام 1962.
- أحيل إلى التقاعد بناء على طلبه ومنحته جامعة بغداد لقب (أستاذ متمرس) في عام 1970.

KMH

● كذلك يمكن العثور في هذه المرحلة الأخيرة على امتداد لتحديث الفكر الإسلامي .. فقد كتب مفكر عراقي، علي الوردي، عدة مؤلفات أعاد فيها كتابة تاريخ الإسلام من زاوية النضال الثوري لتحقيق العدالة، متوخياً تفسير الإسلام في ضوء ما كان يبدو اشد الأحداث وقعاً في زمانه، تماماً كما فسرته مدرسة محمد عبده في ضوء أفكار زمانها ومنجزاتها ..

(البرت حوراني)



0aa=sg